

حالة أهل الحقيقة مع الله

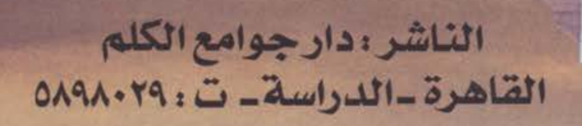
للقطب الكبير

سيدى أحمد الرفاعى

رضى الله تعالى عنه







الناشر : دار جوامع الكلم

القاهرة - الدراسة - ت : ٥٨٩٨٠٢٩

حالة أهل الحقيقة مع الله

للقطب الكبير
سيدى أحمد الرفاعى
رضى الله تعالى عنه

الناشر
دار جوامع الكلم
مشيخة الطريقة الجعفرية
١٧ شارع الشيخ صالح الجعفرى
الدراسة ـ القاهرة ـ تليفون: ٩٢٧٣٦٧

كلمة الناشـــر

الحمد لله الذى يحيى القلوب بنور هدايته

وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا ومولانا محمد الذى اصطفاه الله لحكمته واختاره لتبليغ دعوته ونشر أنوار هدايته ورضى الله تعالى عن آله وعترته ، وعن الصحابة أجمعين ، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين . .

وبعـــد ...

فإن الإمام العارف بالله تعالى سيدى أحمد الرفاعى - رضى الله تعالى عنه وأرضاه ، وجعل الجنة منقلبه ومثواه - قد أثرعنه أنه كان يقول : « تجارة العارف الدلالة على الله ، وسوق القلب إلى الله » .

وقد عاش رضى الله تعالى عنه محققا لتلك المقولة الصادقة ، فكانت تجارته هى الدلالة على الله وسوق القلوب إلى الله ، ومن أجل ذلك كان كتابه هذا الذى سماه :

« **حالة أهل الحقيقة مع الله** » ..

وهو كتاب يشتمل على أربعين حديثا من جوامع كلم نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وقد شرحها رضى الله تعالى عنه ناظراً إليها بعين البصيرة التى يمن الله تعالى بها على من يشاء من عباده فكان هذا الكتاب الذى إذا تأمله المتأمل تذكر قول الله عز وجل « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يّذكر إلا أولو الألباب » وعرف أن أحاديث المصطفى ﷺ لها معان ظاهرة يدركها أهل العلم الظاهر ، ولها معان باطنة يصل إليها من استنار قلبه وصفا من كدورات الدنيا وشهواتها الفانية .

ولحرص دار جوامع الكلم الجعفرية على نشر التراث الصوفى تقدم لأهل المشرب الصافى هذا الكتاب الجليل .

ودار جوامع الكلم بنشرها لهـذا الكتاب فهى تثرى المكتبـة الصوفيـة وتدعم المسيرة الصوفية الحقة المستمدة لجذورها من النبع الصافى للشريعة الإسلامية .

ونسأل الله تعـالى أن ينفعنـا بهـذا الكتـاب ، ومـا اشتمل عليـه من المعـارف والحكم ، وأن يذيقنا من كأس المحبة وأن يسقينا شراب المعرفة انه سبحانه جواد كريم رءوف رحيم .

وهو حسبنا ونعم الوكيل

دار جوامع الكلم

تعريف:

بمؤلف الكتـــــاب

رضى الله تعالى عنه

هو العـارف بالله تعالى القطب الـوارث المحقق سيدى أحمد بن على بن يحيى بن ثابت بن على الحازم بن أحمد بن على بن الحسن الملقب برفاعة الهاشمى المكى .

ينتهى نسبه إلى سيدنـا ومولانا أبى عبد الله الإمـام الحسين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ولد رضى الله تعالى عنه فى قرية حسن من أعمال واسط بالعراق سنة ٥١٢ هـ فى شهر رجب من تلك السنة .

وكانت نشأته بها إلى أن توفى والده وعمره سبع سنين فكفله خاله الشيخ منصور البطائحى الأنصارى الحسينى ، ونقله ووالـدته واخوته إلى بلدة نهر دقلى من أعمال واسط ثم إلى واسط حيث تولى تربيته الإمام العلامة أبو الفضل الواسطى .

وكان رضـى الله عنه عـالما فقيها ، محدِّثـا مفسِّرا ، مقرئا مجوِّدا ، وقـد أفاض الله عليه من العلوم اللدنية ما تفرد به فى زمانه ، ونفع به كثيرين من أتباعه ومحبيه .

وتوفى رضى الله عنه فى الثانى عشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ بعد حياة حافلة بالأنوار والمعارف والبركات والأسرار .

****

مقدمة صاحب الكتاب

رضي الله تعالى عنه

* الحمد لله حمداً نصل به إلى كشف الحجاب، ونُعَدُّ به من الأحباب.

ونشهد أَنْ لا إلَه إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له.

ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وصفيه، وخيرته من خلقه، بعثه الله بالنور الساطع، والبين اللامع، والسيف القاطع، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وأوضح السُّنَّة، وأسس الشريعة، ونصح الأمَّة، وعَبَدَ اللَّهَ حتى أتاه اليقين.

فصلوات الله عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه جمل نذكر فيها: «حالة أهل الحقيقة مع الله» ـ ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ـ وذلك لترتاضَ النفوس، ولتتروح القلوب، بنسبة ما ألفت إليه؛ وإلاَّ فمنبعنا وقتي، وثريدنا طري، من مائدة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، بالتنزل الإلَهي، ما فيه قديد!

****

الحديث الأول :

« السبيل إلى الإيمان »

* حدثنا الشيخ الإمام المقري القاضي الثقة، علي أبو الفضل الواسطي ـ بمدرسته في واسط ـ قال : أنبأنا أبو علي الحسن بن علي بن المهذب، قال : أنبأنا أبو بكر أحمد بن جعفر القطيعي، قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل، قال : حدثني أبي، قال : حدثنا قتيبة بن سعيد بن الليث بن سعد، عن ابن الهادي، عن محمد بن إبراهيم بن الحرث، عن عامر بن سعد، عن العباس بن عبد المطلب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبّاً ، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نبيّاً » .

وهذا الذوق المنبعث عن هذا الرضا، هو: المعرفة بالله تعالى، والمعرفة نور أسكنه الله تعالى قلبَ من أحبه من عباده، ولا شيء أجل وأعظم من ذلك النور، وحقيقة المعرفة حياة القلب بالمحيي : ﴿ **أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً** ﴾ وقال تعالى : ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ . وقال سبحانه : ﴿ **إسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ .

فمَنْ ماتَتْ نفسُه، بعُدتْ عنه دنياه؛ ومن مات قلبُه بَعُدَ عنه مولاه.

وسُئل ابن السماك : متى يعرف العبد أنه على حقيقة المعرفة ؟ .

قال : إذا شاهد الحقَّ بعين اعتباره، فانياً عن كل من سواه.

وقيل : المعرفة فِقْدانُ رؤية ما سواه، بحيث يصير ما دون الله تعالى عنده

أصغر من خردلة، قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ .

من نظر إلى الله تعالى، لم ينظر لا إلى الدنيا، ولا إلى العُقبى، وشمسُ قلب العارف أضوأ من شمس النهار، وأبهج منها في مطلع الأنوار.

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أَحَبَّكَ لَيْلاً فَاسْتَنَارَتْ فَما لَدَيْهَا غُرُوبُ
إنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ لَيْلاً وَشُمُوسُ ٱلْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

قال ذو النون رحمه الله تعالى: اطِّلاع الحق سبحانه على الأسرار بمواصلة المدد، كاطِّلاع الشمس على الأرض بإشراق الأنوار، فعليكم بتصفية القلوب، فإنها مواضع نظره، ومواطن سره، فإنَّ مَنْ عرف الله، لا يختار غيره حبيباً سواه.

وفى الخبر: «إنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ خَلْقَهُ فى ظُلْمَة، فَأَلْقَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَٰلِكَ النُّورِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» . وهو نور يخرج من سرادق المِنَّة، فيقع في القلب، فيستنير به الفؤاد، ويبلغ شعاعه إلى حجب الجبروت، ولا يحجبه عن الحق الجبروت، ولا الملكوت، فيصير العبد في جميع أفعاله وأقواله، وحركاته وإرادته، في حياته ومماته، صائراً إلى النور ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ .. يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

إنْ كُنْتَ لَسْت مَعِى فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعِى
قَلْبى يَرَاكَ وَإنْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِى

معرفة الله تعالى :

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: المعرفة: قرب القلب إلى القريب، ومراقبة الروح للحبيب، والانفراد عن الكل بالملك المجيب.

وقال ذو النون: هي تخلية السر عن كل إرادة، وترك ما عليه العادة، وسكون القلب إلى الله بلا علاقة.

وقال بعضهم : هيئتها جنون ، وصورتها جهل ، ومعناها حيرة .

فإن العارف يشغله علم الله تعالى عن جميع الأسباب ، فإذا نظر إليه الخلق استجهلوه ، ويكون أبداً في ميدان العظمة ، وَلِهاً [1] بين الخلق ، فإذا رأوه استجنُّوه ، ويكون بكليته فانياً بحب جلال عظمته تعالى ، مشغولاً عن من سواه ، فإذا أبصروه استدهشوه ! .

ولا يقدر أحد أن يخبر عن المعرفة بالله تعالى ، فإنها منه بدَتْ ، وإليه تعود ، فالعارف فَانٍ تحت اطِّلاع الحق تعالى ، باقٍ على بساط الحق بلا نَفْسٍ ولا سبب ، فهو مَيِّتٌ حيٌّ ، وحي ميت ، ومحجوبٌ مكشوفٌ ، ومكشوف محجوب : تراه وَالِهاً على باب أمره ، هائماً في ميدان بِرِّه ، متدللاً تحت جميل ستره ، فانياً تحت سلطان حكمه ، باقياً على بساط لطفه .

العارفون صارت أنفسهم فانية تحت بقائه وسلطانه عن كل حول وقوة ، تراهم باقين بحوله وقوته ، متلاشين عن كونهم وأسبابهم تحت جلال ألوهيته ، ملوكاً به دون مملكته ، فقرهم به ، وغناهم به ، وعزهم به ، وذُلُّهم به .

[المعرفة الحقة] :

يروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود! اعرفني واعرف نفسك .

فتفكر داود فقال : إلٓهي ! عرفتك : بالفردانية ، والقدرة ، والبقاء ؛ وعرفت نفسي : بالعجز والفناء .

---

(١) الوله : شدة الحيرة مع ذهاب العقل .

فقال: الآن عرفتني.

وروي في الخبر: لو عرفتم الله تعالى حق معرفته لَعُلِّمْتُمْ العلم الذي ليس بعده جهل، ولزالت الجبال بدعائكم.

مع أنه لا ينتهي أحد ولا يبلغ منتهى معرفته، إن الله تعالى أعظم من أن ينتهي أحد إلى منتهى معرفته.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه الرضوان والسلام: لا يعرف الله حق معرفته من التفت منه إلى غيره، المعرفة هي: طيران القلب في سرادق الأُنس والألفة، جَوْلاً في حجب الجلال والقدرة.

وهذه حالة من صُمَّتْ أذناه عن البطالات، وعميتْ عيناه عن النظر إلى الشهوات، وخرس لسانه عن التكلم بالتُرَّهات.

وقيل لأبي يزيد ـ رحمه الله تعالى ـ: ترى الخلق؟ قال: به أراهم.

وسُئل محمد بن واسع رحمه الله تعالى: هل عرفت ربك؟ فسكتَ ساعة ثم قال: من عرف الله تعالى قَلَّ كلامه، ودام تحيُّره، فني عن صور الأعمال، وتحيَّر مع الاتصال، متقربًا في جميع الأحوال، منقطعاً عن الحال إلى وليِّ الحال، فإن الأمور بحقائقها، لا بالحس وصورها.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى: ليس على تحقيق بالمعرفة، من رضِيَ بالحال دون وليِّ الحال، فإنَّ من عرف الله كَلَّ لسانُه، ودهش عقله، العارفُ: إن تكلم بحاله هلك، وإن سكت احترق!.

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: المعرفة على وجهين: معرفة الإيقان، ومعرفة الإيمان.

فمعرفة الإيمان: شهادة اللسان بتوحيد الملك الديان، والإقرار بصدق ما في القرآن.

وأما معرفة الإيقان: فهي دوام مشاهدة الفرد الديَّان بالجَنَان.

وقال بعضهم: هي على ضربين:

الأول: هو أن يعرف أن النعمة من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله ﴾، فيقوم بشكره، فيستزيد به النعمة من الله، بدليل قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾.

والثاني: رؤية المُنْعِم من غير أن يلتفت إلى النعمة، فيزيد شوقه إلى المُنْعِم، ويقوم بحق معرفته ومحبته، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: هي على ثلاثة أوجه:

أولها: معرفة التوحيد، وهي لعامة المؤمنين.

والثاني: معرفة الحجة والبيان، وهي للعلماء، والبلغاء، والحكماء.

والثالث: معرفة صفات الفردانية، وهي لأهل ولاية الله تعالى وأصفيائه، الذين أظهر الله لهم ما لم يُظهر لمن دونهم، وأعطاهم من الكرامات ما لم يجز أن يوصف ذلك بين يدي من لا يكون أهلاً له.

خصهم الله من بين الخلائق، واصطفاهم لنفسه، واختارهم له، فحياتهم رحمة، ومماتهم غبطة، طوبى لهم.

وقال غيره: هي على وجهين.

معرفة التوحيد: وهو إثبات وحدانية الواحد القهار.

ومعرفة المزيد: وهي التي لا سبيل لأحد إليها.

التوحيد والتجريد والتفريد:

أقول: هي كشجرة لها ثلاثة أغصان؛ توحيد، وتجريد، وتفريد.

فالتوحيد: بمعنى الإقرار.

والتجريد: بمعنى الإخلاص.

والتفريد: بمعنى الانقطاع إليه بالكلية في كل حال.

وأول مدارج المعرفة: التوحيد، وهو قطع الأنداد؛ والتجريد: وهو قطع الأسباب؛ والتفريد: وهو بمعنى الاتصال بلا سير، ولا عين، ولا دون.

ولها خمسة طرائق:

أولها: الخشية في السر والعلانية.

والثانية: الانقياد له في العبودية.

والثالثة: الانقطاع إليه بالكلية.

والرابعة: الإخلاص له بالقول، والفعل، والنية.

والخامسة: المراقبة في كل خطرة ولحظة.

حال الحبيب:

وحكي عن عبد الباري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: خرجت مع أخي ذي النون ـ رحمه الله تعالى ـ فإذا نحن بصبيان يرمون واحداً بالحجارة فقال لهم أخي: ما تريدون منه؟.

قالوا: هذا رجل مجنون! ومع ذلك يزعم أنه يرى الله تعالى!.

قال: فدنونا منه؛ فإذا هو شاب وسيم؛ ظهر عليه سيما العارفين؛ فسلمنا عليه، وقلنا: إنهم يزعمون أنك تدَّعي رؤية الله تعالى! فقال: إليك عني يا بطال! لو فقدتُه أقل من طرفة عين لمت من ساعتي وأنشأ يقول:

طَلَبُ الْحَبِيبِ مِنَ الْحَبِيبِ رِضَاهُ ... وَمُنىٰ الْحَبِيبِ مِنَ الْحَبِيبِ لِقَاهُ

أَبَدًا يُلاحِظُهُ بِعَيْنَيْ قَلْبِهِ ... وَالْقَلْبُ يَعْرِفُ رَبَّهُ وَيَرَاهُ

يَرْضَىٰ الْحَبِيبُ مِنَ الْحَبِيبِ بِقُرْبِهِ ... دُونَ الْعِبَادِ فَمَا يُرِيدُ سِوَاهُ

فقلت له : أمجنـون أنت ؟ فقال : أما عند أهل الأرض فنعم ؛ وأمـا عند أهل السماء فلا .

قلت : فكيف حالك مع المولى ؟ فقال : منذ عرفته ما جفوته .

فقلت : منذ كم عرفته ؟ قال : منذ جعل اسمي في المجانين ! .

****

الحديث الثاني :

الكيّس والعـــاجز

أخبرنا شيخنا الشيخ الإمام المقري القاضي، أبو الفضل علي الواسطي - بمدرسته بواسط - قال : أنبأنـا الشريف النقيب أبو الفوارس طراد بن محمد ابن علي الزبيبي - قراءة عليه، ونحن نسمع - قال : أنبأنا أبو الحسين علي ابن محمد، قال : أنبأنا أبو علي الحسين بن صفوان، قال : أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا؛ قال : أنبأنا الهيثم بن خارجة، قال : أنبأنا ثقبة بن الوليد، عن أبي بكر بن أبي مريم، قال : حدثني حمزة بن جندب، عن أبي يعلى شـــدَّاد بن أوس رضي الله عنـــه، قـال : قـال رســـول الله ﷺ :

«الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لمَا بَعْد ٱلمَـوْتِ، وَالْعَاجِـزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهُ وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللَّهِ».

فالعمل بسرِّ هذا الحديث، هو المعـرفة؛ نعم إن المعرفـة من العبد، والتعريف من الـرب تعالى، وهي أشرف وأعظم الهدايا، التـي يهديها إلى عباده، فإن الله تعالى إذا أراد أن يختار عبـداً من عبيده، ويفضله على من سواه من خلقـه، ويُطْلع في سره شمسَ المعـرفة، ينظـر إليه بعين الفضل والرحمة، ويفتح لـه أبواب الهداية، ثم يكـرمه بالانتباه، ويوقظـه من نومة الغـافلين، وينعم ويمن عليـه بشرح القلـب، ويذهب عنـه مـوت القلب بـالفهم، ويذهب عنـه الـوهم، ويكرمـه بـالحياء، والخـوف، واليقين، ويذهب عنه الشك، وجراءة الأمن.

فإذا اجتمعتْ في العبد هـذه الخصال : أشرق فؤاده بنـور، فيرى ما دون حجب الجبروت، وتشتاق إليه الجِنان، ويخمد منه لهبات النيران، ولو أن

المعـرفـة نقشت علـى شيء، مـا نظـر إليهـا أحـد إلاَّ مــات من حسنهـا وجمالها! لكل أحد رأس مال، وهي رأس مال المؤمن.

وقال رجل لـذي النون رحمه الله تعـالى: إني لأُحِبُّك، فقال: إن كنتَ عـرفت الله فحسبك الله، وإن لم تعـرفـه فاطلب مـن يعرفـه، حتى يـدلك عليه.

المعرفة شـــــجرة طيبة:

وعندي أن المعرفـة كشجرة يغرسها مَلِكٌ فـي بستانه، ثمينة جـواهرها، مثمرة أغصانها، حلوة ثمارها، طريفة أوراقها، رفيعة فروعها، نقية أرضها، عذب ماؤها، طيب ريحها، صاحبها مشفق عليها لعزتها، مسرور بحُسن زهرتها، يدفع عنها الآفات، ويمنع عنها البليات.

وكذلك شجـرة المعرفة، التي يغـرسها الله تعالى في بستـان قلب عبده المؤمن، فإنه يتعهـدها بكرمه، ويرسل إليها كل سـاعة سحائب المِنَّة من خـزائن الرحمـة، فيمطـر عليهـا قطرات الكـرامـة، بـرعد القـدرة، وبـرق المشيئة، ليطهـرها من غبار رؤية العبـودية، ثم يرسل عليهـا نسيم لطائف الرأفة، من حجب العناية، ليتم لها شرف الولاية، بالصيانة والوقاية.

فالعارف أبداً يطوف بسـره تحت ظلالها، ويشم من رياحينها، ويقطع منها بمنجل الأدب، ما فسد من ثمارها وحل فيها من الخبث والآفة.

فإذا طال مقام سـر العارف تحتها، ودام جولانه حولهـا، هاج أن يتلذذ بثمارها، فيمد إليها يد الصفاء، ويجتني ثمارها بأنامل الحرمة، ثم يأكلها بفم الاشتياق، حتى تغلبـه نار الاستغراق، فيضرب يد الانبسـاط إلى بحر الوداد، ويشرب منه شربة يسكر بها عن كل ما سوى الحق، سكرة لا يفيق منهـا إلا عند المعـاينة، ثـم يطير بجنـاح الهمة، إلى مـا لا تـدركه أوهـام الخلائق.

وقيل للواسطي رحمه الله تعالى : أي الطعام أشهى؟ قال : لقمة من ذكر الله تعالى ، تُرفع بيد اليقين ، من مائدة الخلد ، عند حسن الظن بالله تعالى .

قال النساج رحمه الله تعالى : يخرج أكثر أهل الدنيا من الدنيا ، ولم يذوقوا طيباتها المقصودة ؛ قيل : وما هى ؟ .

قال : سرور المعرفة ، وحلاوة المِنَّة ، ولذائذ القربة ، وأنس المحبة .

وقال محمد بن واسع رحمه الله تعالى : حقٌّ لمن أعزه الله بمعرفته ، أن لا يذل نفسه لغيره ، وحق لمن والاه الله بولايته ، أن يقوم بحقه ، وحق لمن أكرمه الله بصحبته ، أن لا يميل إلى غيره ، ولا يعمل بهوى نفسه .

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى : إن في الليل شراباً لقلوب العارفين ، تطير به قلوبهم حباً لله وشوقاً إليه ، إلا أن الناظرين إليه لا إلى غيره ، ذهبوا بصفوة الدنيا والآخرة .

[ربى : زدنى فيك تحيّرَ] :

أقول : وهذا الشراب هو التحيُّر ، وهو على ضربين : تحير وحشة ، وتحير دهشة ؛ فتحير الوحشة للمطرودين ، وتحير الدهشة للعارفين المشتاقين . يا دليل المتحيرين ! زدني تحيراً .

****

الحديث الثالث :

الإيمـــــان في القلب

أخبرنـا العبد الصـالح الثقة، الشيخ أبـو محمد أحمد بـن عبد الله، بن الحسين، بن أحمد، بن جعفر الآمدي الواسطي، قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد، بن على ابن كاتب الوقف بواسط، قال: أنبأنا أبو الحسن محمد بن علي الرواسي - إملاء بجامع واسط - قال: أنبأنا أبو القاسم عبيد الله بن تميم، قـال: أنبأنا أحمـد بن إبراهيم الإمـام، قال: أنبأنـا علي بن حرب، بن زيد، بن الحباب، قال: أنبأنا علي بن مسعدة الباهلي، قال: أنبأنا قتادة، أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ :

«الإِسْلاَمُ عَـلانيَةٌ، والإِيمَـانُ في القَلْبِ، والتقْوى هَـا هُنا» [1] - يقولها ثلاثاً - ويشير بيده إلى صدره ﷺ .

والتقوي التي تقـر في القلب، فَتُحْكِمُ فيه الإيمانَ، هي روح المعـرفة. أي سادة! إن الله تعالى جعل لكلِّ شيء قدراً، ولكلِّ قدر حداً، ولكلِّ حدٍّ سبباً، ولكلِّ سبب أجـلاً، ولكلِّ أجل كتاباً، ولكلِّ كتاب أمـراً، ولكل أمر معنى، ولكلِّ معنًى صدقـاً، ولكلِّ صدق حقّـاً، ولكلِّ حقٍّ حقيقة، ولكلِّ حقيقة أهلاً، ولكلِّ أهل علامة.

فبـالعـلامـة يُعـرف المُحِقُّ من المبطل، وكل قلب أقعـده على بسـاط تحقيق المعـرفـة، وقع بسيمـاء المعـرفة علـى وجهه، ويظهـر أثـرهـا في حركـاته، وأفعاله، وأقـواله، كما قـال الله تعالى: ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسيمَـاهُمْ ﴾ وقال ﷺ : **«من أسَـرَّ سريـرة ألبســه الله رداءها، إنْ خيـراً فخير، وإن شـرّاً فشر»**.

---

(١) رواه الإمام أحمد والبزار.

الصالحون أحسن الخلق وجوهـــا :

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى : مـا بال العارفين أحسن وجوهاً، وأكثر هيبة من غيرهم ؟ .

فقال : لأنهم خَلَـوا بالله مستأنسين ، وَقَـرُبُوا إلى الله متوجهين ، وفَـزِعوا إليه متوالهين ؛ فكسـاهم الله بنور معرفته ؛ فبه ينطقون ، ولـه يعملون ، ومنه يطلبون ، و إليه يرغبون ، أولئك خواصُّ الله السابقون ، سعيهم في طاعة الله من غير علاقة ، و ينصحون العامـة من غير طمع ، مشتاقون منيبون إلى الله تعالى ، قلـوبهم له وَجِلة ، نفوسهـم وحشية ، وقلوبهم عرشيـة ، وعقولهم مغشية ، وأرواحهم ياسينية ، كلهم معصـوم بقلبه عن فتنة الناس ؛ وذِكْرُ الله يحميـه من شـر الـوسـواس ، صـدره مشـروح ، وجسمـه مطـروح ، وقلبـه مجروح ، وباب الملكوت له مفتوح .

قلبه مثل القنديل ، وجـوارحه خاضعة كالمنديل ، لسـانه مشغول بتلاوة القرآن ، ولونه مصفرٌّ من خوف الهجـران ، ونفسه ذائبة في خدمة الرحمن ، وقلبه زاهـر بنور الإيمان ، نفسـه مشغولة بـالطلب ، وروحه مشغولـة بقرب الربِّ ، على لسانه وصف الـربوبية ، وعلى أركانه خدمـة الديمومية ، وعلى نفسه أثر العبـودية ، وفي قلبه هيبة الفـردانية ، وفي سره الطرب بـالألوهية ، وفي روحه شغف الوحدانية .

تعلق العارفين بالحق ســـبحانه :

أفواههم إليـه ضاحكـة ، وأعينهم نحوه طامحـة ، وقلوبهم بـه متعلقة ، وهمومهم إليه واصلة ، وأسـرارهم إليه ناظرة ، رَمَوْا ذنوبهم فـي بحر التوبة ، وطرحوا طاعاتهم في بحر المِنَّة ، وضمائرهم في بحر العظمة ، ومرادهم في بحر الصفوة ، وهممهم في بحر المحبة .

في ميدان خـدمته يتقلبون، وتحت ظـلال كرمه يتنفسـون، وفي رياض رحمته يرتعون، ومن رياحين امتنانه يشمون.

ينظـرون إلى الـدنيـا بعين الاعتبـار، وإلى الآخـرة بعين الانتظـار، وإلى أنفسهم بعين الاحتقار، وإلى طاعتهـم بعين الاعتذار، لا الاستكثار، وإلى الغفـران بعين الافتقـار، وإلى المعـرفـة بعين الاستبشـار، وإلى المعـروف سبحانه بعين الافتخار، يرمون أنفسهم إلى البلوي، وأرواحهم إلى العقبي، وقلوبهم إلى النجوى، وأسرارهم إلى المولى.

أنفسهم تاركة للدنيا، وأرواحهم للعقبى، وقلـوبهم مستأنسة بالذكرى، وأسرارهم بحب المولى، قلوبهـم معدن التعظيم والهيبة، وألسنتهم معادن الحمـد والمدحـة، وأرواحهم مواطن الشـوق والمحبة، وأنفسهم مقهـورة تحت سلطان العقل والفِطنة.

أكثر همتهم التفكيـر والعبرة، وأكثر كـلامهم الثناء والمـدحة، عملهم الطاعة والخدمة، ونظرهم إلى لطائف صنع ربِّ العزة.

أحدهم تـراه مصفراً من خوف فـراقه، ذائب الأطراف من هيبة جـلاله، طـويل الانتظار شـوقاً إلى لقـائه، سلك طـريق المصطفى، ورمى الدنيـا خلف القفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، وقام على قدم صدق الوفا.

حال الحبيـب مع سيده :

حاله في الدنيا غريب، وقلبه في صدره غريب، وسره في نفسه غريب، فـلا يستريح من غم الغـربـة ووحشتها، مـا لم يصل إلى الحبيب، فأمـره عجيب، والمولى له طبيب؛ كلامه وجداني، وقلبه فرداني، وعقله رباني، وهَمُّهُ صمداني، وعيشه روحاني، وعمله نوراني، وحديثه سماوي.

جعل الله قلبه موضع سره، وموطن نظره، وزيَّنه بحليِّ ربوبيته، وأدخله

دار الإمارة من سلطانه، يدور بالفؤاد حول عزته، ويرتفع في روضات قدسه، ويطير بجناح المعرفة في سرادقات غيبه، ويجول في ميادين قدرته، وحجب جبروته، لو رآه الجاهل بشأنه مات فزعاً بعد معرفته له من ساعته، علامته في الدنيا أن يكون البلاء عنده عسلاً، والأحزان رُطَباً، وفي الآخرة كل واحد يقول: نفسي، نفسي! وهو يقول: ربي، ربي، مرادي، مرادي.

من علامات العارف:

العارف علامته أربعة: حبه الجليل، وتركه الكثير والقليل، واتباعه التنزيل، وخوفه من التحويل.

العابد ذو نصب، والخائف ذو هرب، والمحب ذو شغب، والعارف ذو طرب.

****

الحديث الرابع :

صاحب الوجهين

أخبرنا شيخنا الولي التقي الثقة، المقري القاضي، أبو الفضل علي الواسطي القرشي بمدرسته في واسط، قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد، قال: أنبأنا على أبو طاهر الحسن ابن الوزير أبي القاسم علي بن صدقة بن على، قال: أنبأنا أبو المطهر سعد بن عبد الله الأصبهاني، قال: أنبأنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الحافظ، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن فارس، قال: أنبأنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، قال: أنبأنا أبو داود الحضري، قال: أنبأنا ابن الربيع، عن نعيم بن حنظلة، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

« ذُو الوَجْهَينِ في الدُّنْيا، ذُو لِسَانَينِ في النَّار »[1].

ولهذا صرف العارفون وجوههم إلى الله تعالى، فلن ترى للعارف وجهتين أصلاً، ومن هذا السر أمروا بعدم الجمع بين أُستاذين، وقالوا: إذا وُجد الأكمل الأفضلُ في طريق الله تعالى، الأصح اتباعاً لرسول الله ﷺ، فعلى المريد أن يتمسك به؛ بل على ما كان يزعم المشيخة، أن يلتحق به هو وأولاده في الطريق.

وهذا ضرب من أعظم أضراب المعرفة بالله.

جملة من أحوال العارفين :

أيْ سادة ! اعلموا أن العارفين على أصناف مختلفة، ومناهج متفاوتة، ومراتب متلونة، وأنواع متفرقة، ومنازل متنوعة.

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان.

فمنهم من عرف الله بالقدرة ، فخافَهُ .

ومنهم من عرفه بالفضل ، فأحسن الظن به .

ومنهم من عرفه بالمراقبة ، فاعتقد الصدق .

ومنهم من عرفه بالعظمة ، فاعتقد الخشية .

ومنهم من عرفه بالكفاية ، فاعتقد الافتقار إليه .

ومنهم من عرفه بالفردانية ، واعتقد الصفوة .

ومنهم من عرفه به فاعتقد الوصلة ، فَوِجْدَان (أي معرفة) الخوف على قَدْرِ عرفان القدرة ، وَوِجْدَان حسن الظن على قَدْر عرفان الفضل ؛ وَوِجْدَانُ الصدق على قدْر عرفان المراقبة ، وَوجدان الخشية على قَدْر عرفان العظمة وَوِجدانُ الافتقار على قَدْرِ عرفان الكفاية ، وَوِجْدَان الصفوة على قَدْر عرفان الفردانية ، ووِجْدان الوصلة على قَدْر عرفان الرّب تعالى .

وكذلك أهل السمٰوات في العبادة على مقامات ، فمقام بعضهم الحياء ، والحرمة ؛ ومقام بعضهم القربة ، والمؤانسة ، ومقام بعضهم رؤية المِنَّة ، ومقام بعضهم : المراقبة ؛ ومقام بعضهم : الهيبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ .

فأهل المعرفة عامتهم يعرفونه على سبيل الخبر في التوحيد ، عن الصادق الأمين ، سيدنا وسيد العالمين محمد ﷺ ، فصدَّقوه بقلوبهم ، وعملوا بأبدانهم ، إلاَّ أنهم دنسوا أنفسهم بالذنوب والمعاصي ؛ فعاشوا في الدنيا على الجهل والتقصير، فهم على خطر عظيم ؛ إلا أن يرحمهم أرحم الراحمين .

وأناس فوقهم يعرفونه بالدلائل ، وهم أهل النظر والعقل والفكر، أيقنوا بالتوحيد ، من قِبَلِ الدلائل والآيات وآثار الربوبية ، استدلوا بالشاهد على

الغائب، واستيقنوا صحة الدلالة، فهم على طريق حسن، إلاَّ أنهم عاشوا محجوبين عن الله تعالى برؤية دلائلهم.

وخواص أهل المعرفة من أولى اليقين، عرفوه به سبحانه، فوقفوا متمكنين مع معرفتهم، لا تخطفهم الأدلة، ولا تصرفهم العلة، دليلهم رسول الله ﷺ، وإمامهم القرآن، ونورهم يسعى بين أيديهم.

فمن عرفه تعالى بالخبر، كمثل إخوة يوسف، إذ عرفوا لونه، وغفلوا عنه حتى افتضحوا بين يديه، حيث ﴿ قَالُوا: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾.

ومن عرفه بالدلائل، كمثل يعقوب، إذ عرف أن يوسف يُعد في الأحياء، فازداد حزناً وبكاء، واحتمل ما احتمل من أنواع البلاء، حتى ابيضَّتْ عيناه من الحزن، علماً منه بحياته، وشوقاً إلى لقائه، حتى قال: اذهبوا فتحسسوا من يوسف، وقال: إني لأجد ريح يوسف، حتى قال من غفل عنه: ﴿ تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيم ﴾ وقالوا: ﴿تاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ ﴾.

ومثل من عرفه به، كبنيامين حين أخذه يوسف لنفسه، فقال: يا أخي أمشاهدتي تريد، أم الرجوع إلى أبيك؟ قال: بلى مشاهدتك أريد، قال: فإن أردتني فاصبر على محنتي، قال: نعم، أحتمل لأجلك كل بلوى، أليس أني أبقى معك ولا أُفارقك؟ ثم أخرج الصاع من وعائه، ونسبه إلى السرقة! حتى عابه أهل مصر على ذلك ولاموه، وشتمه إخوته، وهو في ذلك كله مسرور ضاحك في سره، ولم يَخَفْ من لومة اللائمين! فهذا مثل من عرفه من أهل اليقين.

أصناف الرجـــــال :

وقال شيخ الطائفة الإمام الحسن البصري رضي الله عنه أهل المعرفة في الدنيا على ثلاثة منازل :

١ ـ رجل لقي العبادة فعـانقها وخلط بها لحمه ودمه ، وفـزع إليها قلبُه ، وعلم أن الله تعالى رازقـه وكافيه ، فوثق بوعـده ، فلم يشغل نفسه بشيء من أمور الـدنيا ، جعل السمـاء سقفه ، والأرض بسـاطه ، ولا يبالـي على يُسْرٍ أصبح ، أم على عُسْـرٍ ، أمسى يعبـد الله تعـالـى حتى يأتيَـه اليقين ؛ فهـذا الضرب في الدنيا أعز من الكِبْريت الأحمر.

٢ ـ ورجل آخر لم يصبر كمـا صبر الأول ، فطلب كِسرةً من حِلِّها ، يقيم بها صلبه ، وخِـرقة يواري بها عـورته ، وبيتاً يسكنه ، وزوجـة يستعف بها ، وهو مع ذلك شديد الخوف ، عظيم الرجاء ، فهو على طريق حسن .

٣ ـ وأمـا الثالث : فإنـه لا يصـدق الله بقـوله! فيبني القصـر المشيـد ، ويركب المركب الفَرِه (المركب الحسن) ، ويستخدم الخدم ؛ فليس له في الآخرة من خلاق ! إلا أن يرحمه أرحم الراحمين .

أصناف العابدين :

رأيت في بعض الأخبـار أن عيسى بن مـريم عليـه السـلام مـرَّ بنفـر من الناس ، قد نَحِلَتْ أبدانُهم ، وتغيَّرت ألـوانهم ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا : الخوف من النار، فقال : حقٌّ على الله أن يُؤَمِّنَ الخائف .

ثم بلغ إلى نفر آخـر، فإذا أبدانهم أشـد نحـولاً، وألـوانهم أشد تغيـراً، فقال : ما الـذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشـوق إلى الجنان ؛ فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون .

ثم مرَّ حتى بلغ نفراً ثالثاً، فإذا أبدانهم أشد نحولاً، وألوانهم أشد تغيراً، فقال: ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الحب لله والشوق إليه، فقال لهم عيسى عليه السلام: أنتم المقربون - ثلاث مرات - .

فأهل المعرفة ثلاثة أصناف: صنف يمشون على قدم الافتقار والاضطرار.

وصنف يمشون على قدم الاعتبار والانكسار .

وصنف يمشون على قدم الافتخار والاستبشار.

قال الله تعالى: ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ .

* والناس في مشهد المعرفة على مرتبتين: إما في يقظة المعرفة، فهم في تربية الولاية، فينظرون الكرامة؛ وإما في نوم الغفلة، فهم في تربية العداوة، فهم ينظرون الإماتة، إلا أن يرحمهم أرحم الراحمين.

فسبحان من خَصَّ من عبيده من شاء وأعطاهم، ثم دعاهم إلى نفسه بفضله حيث قال: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ** ﴾، فأجابوه وأنابوا إليه، فهم على أصناف شتى:

فالتائبون يمشون برجل الندامة على قدم الحياء.

والزاهدون يمشون برجل التوكل على قَدَم الرضاء.

والخائفون يمشون برجل الهيبة على قدم الوفاء.

والمحبون يمشون برجل الشوق على قدم الصفاء.

والعارفون يمشون برجل المشاهدة على قدم الفناء.

فالمعرفة طعام أطعمه الله من شاء من عباده، فمنهم من يذوقه ذوقاً. ومنهم من يأكل منه بلاغاً، ومنهم: من يأكل منه كفافاً، ومنهم: من يأكل منه شِبَعاً.

* والناس في المعرفة على منازل: فمنهم من يكون منزله منها كشِعْب، ومنهم من يكون كقرية، ومنهم من يكون كمِصْر، ومنهم من يكون منزله منها كالدنيا والآخرة.

روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: إذا كان يوم القيامة، نادي منادٍ: أخرجوا من النار من قال: لا إلّه إلا الله، وفي قلبه مثقال حبة من خردل من الإحسان، وقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام:

« . . . **الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَمْ تكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

وما ذلك إلا حقيقة المعرفة، فيقول لهم الرب تعالى: أنتم عبيدي حقاً، فقد طال شوقكم إليَّ، وشوقي إليكم، السلام عليكم عبيدي، فها أنا حبيبكم، فبعزتي ما خلقت الجنة إلا من أجلكم فلكم اليوم ما شئتم.

تعبد الله حباً فى الله :

وحكي أن مالك بن دينار وثابتاً البناني رحمهما الله، دخلا على رابعة البصرية، فقالت لمالك: أخبرني لِمَ تعبدُ ربك؟ قال: شوقاً إلى الجنان. فقالت لثابت: وأنت يا غلام؟ فقال: خوفاً من النيران.

فقالت: أنت يا مالك! مثل أجير السوء، لا يعمل إلا طمعاً! وأنت يا ثابت! مثل عبد السوء، تعمل خوفاً من الضرب! فقالا: وأنت يا رابعة! فقالت: حباً لله تعالى، وشوقاً إليه.

وحُكيَ أَنَّ ذا النون المصري رضي الله عنه، كان يعظ الناس ذات يوم وهم يبكون، وفيهم شاب يضحك! فقال له: مَا لَكَ يا فتى؟ فقام يُنشد ويقول:

كلُّهمْ يعبُدونَ من خَوْفِ نارٍ ... وَيَرَوْنَ النَّجاةَ حظّاً جَزِيلا
أَو بأنْ يسْكُنُوا الجِنانَ فيُضْحُوا ... في رياضٍ عُيونُها سَلْسَبيلا
ليسَ في الخُلْدِ والجِنَان هَوائِي ... أَنا لاَ ابْتَغي بِحِبِّي بَدِيلا

الحديث الخامس :

أنصر أخاك دائمـــــاً

أخبـرنا شيخنـا الصـالح الثقة العـارف بـالله ، القاضي أبـو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه ، قال : أنبأنا القاضـي أبو بكر محمد بن عبد الباقي ابن محمـد البـزاز، قـال : أنبأنـا أبو إسحـاق إبـراهيم بن عمـر بن أحمـد البرمكي ، قال : أنبأنـا أبو محمد عبد الله بن محمد البزار، قـال : أنبأنا أبو مسلم إبـراهيم بن عبـد الله بن مُسْلم البصـري ، قـال : أنبأنا أبـو عبـد الله الأنصاري ، قال : حدثنا حميد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ .

« أُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً كَانَ أَوْ مَظْلُوماً ، قَالَ : أَنْصُرهُ مَظْلُوماً ، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالماً ؟ قَالَ : تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَذَلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاه »[1] .

أقول : هذا بشأن أخيك ، فكيف بك بشأنك؟ أخيفوا نفوسكم وامنعوها وازجروها .

أجنحـــــة العارفين :

أيْ سـادة ! للعـارف أربع أجنحـة : الخـــوف ، والـرجـاء ، والمحبـة ، والشوق .

فلا هو بجنـاح الخوف يستريح من الهرب ، ولا بجناح الـرجاء يستريح من الطلب ، ولا بجنـاح المحبة يستـريح من الطـرب ، ولا بجناح الشـوق يستريح من الشَّغْبِ ، واللَّهُ تعالى بَيَّنَ في كتابه نعتهم بقوله : **﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾** ، وقوله تعالى : **﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾** .

---

(١) الحديث روى نحوه البخاري والترمذي .

وذلك لأن عمل العارف خالص للمولى، وقوله مستأنس بالذكرى، ونفسه صابرة في البلوى، وسره دائم النجوى، وفكره بالأُفق الأعلى، فمرة يتفكر في نعم ربه، ومرة يجول حول سرادقات قدسه.

فحينئذ يصير حرّاً عبداً، وعبداً حرّاً، وغنياً فقيراً، وفقيراً غنياً.

هكذا يُعِدُّ ما أمكنه طرداً وعكساً من الألفاظ، مثل الموجود والمعروف، والعزيز والمسرور، والقريب والمحمود، والناطق والساكت، والمقبول والخائف، والشاهد والغائب، والباكي والضاحك.

وذلك لأنه ضَحِكه وسروره في حزنه، وحزنه في سروره، وعزه مختلط بِذُلِّهِ، وذُلُّهُ مختلط بعزه، وخوفه ممزوج برجائه، ورجاؤه ممزوج بخوفه، لا خوف يذهب برجائه، ولا رجاء يذهب بخوفه؛ وهو بنفسه يعيش مع الناس، وبقلبه مع الله تعالى، لا تغلب معاملةُ نفسه مع الناس معاملةَ قلبه مع الله تعالى، عزيز ذليل، فقير غني، كما قال أبو يزيد رضي الله عنه في مناجاته: إلَهي!.

كُلَّما قُلْتُ قَدْ دَنَا حَلُّ قيْدي * قيَّدوني وَأَوْثَقُوا الْمِسْمارَا

وكان يسيل الدمع من عينيه عند هذه الكلمة.

وليس كل من يُرىٰ عليه أثر الزهد فهو زاهد! وكذلك أثر الغربة، والحماقة والجنون، والبطالة والغفلة.

إن الله تعالى، كلما نظر إلى قلب عبد من عبيده، بالفضل والرحمة، كشف عنه حجاب الغفلة، وأظهر له لطائف القدرة، فعند ذلك لا بد له من إحدى ثلاث:

إما أن يصير حكيماً، يتصل به الخلق إلى الله؛ وإما أن يَكلَّ لسانُه، فيصير مدهوشاً مبهوتاً؛ وإما أن يصير مستوراً في حجبه، محفوظاً في قبضته، حتى لا يراه غيره، لشدة غيرته عليه.

فسبحـان من حجب أهل معـرفته عن جميع خلقـه، حجبهم عن أبنـاء الدنيا بأستار الآخرة، وعن أبناء الآخرة بأستار الدنيا، وذلك أن أهل المعرفة عرائس الله تعـالى في أرضه، والله مَحْرَمهُم، لا مَحْرَمَ لهم غيـره، فهم عند الله مخدورون (من الخدر وهو الستر).

وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود! أوليائي في قباب لا يعرفهم إلا أوليائى، فطوبي لأوليائي، ثم طوبى لأحبائي.

يقال: لـو بدت ذرة من نور النبي عليـه الصلاة والسلام لاحتـرق ما بين العرش إلى الثرى.

علامة العـــــــارف:

قيل لرابعة ـ رحمهـا الله تعالى ـ ما كمال حال العـارف؟ قالت: احتراقه بحبه لربـه، وعلامته: أن يكون مستغنياً بالمعطي عن العطـاء، وبالمكوِّن عن الكون، مستغـرقاً في بحار سرور وجـدانه، ساكناً بقلبه معـه، مع ترك كل اختيار لنفسـه، ولا يجزع عند الشـدائد والبلوى لـرؤيته، ويعلم أن الله تعالى أقـرب إليه من كل شيء، وأرحم عليه من كل أحد، وأعـز وأكبر من كل شيء، وأن لكل شيء خلفاً ما خلا الله تعالى.

لِكُلِّ شَيْءٍ عَدِمْتَهُ خَلفُ * وَمَا لِفَقْدِ الْحَبِيبِ مِنْ خَلَفِ

وإنما يَعْـرِفُ العارف، إذا ميَّزَ الخواطـر النفسية من الخواطر الـروحية، والإرادة الدنيـاوية من الأخرويـة، والهمم العلويـة من السفلية، فمن رُزق التوفيق على حفظ حدود صدق وفاء العبودية، والقيام بشروطها، ووجدان السبيل إلى طريق حفظ تحقيقهـا، ثم قام بذكره، وذكـر ذكره، ثم شكره، وشكـر شكـره، فيصيـر مع النفس بـلا نفس، ومع الـروح بـلا روح، ومع الخلق بلا خَلْق.

قلوب معلقـــــة بالله :

كمـا قـال الإمام ابن عبـاس رضي الله عنهمـا : بلغنـا أن عيسى ويحيىٰ عليهما الصلاة والسلام ، بينما كانا يسيران في بعض الطرق ، فصدم يحيى امرأة ، فقال لـه عيسى : يا ابن خالتي ! لقد أصبت اليوم ذنبـاً عظيماً ، قال ومـا هو؟ قـال : امـرأة صدمتهـا . قال يحيى : والله مـا شعـرت بها . فقـال عيسى : سبحـان الله ، نفسك معي ! فـأين قلبك وروحك ؟ فقـال : عنـد الله ، يا عيسى ! لو سكن قلبي إلى جبريل ، أو إلى أحد غير الله طرفة عين ، لظننتُ أني ما عرفت الله حق معرفته .

معنى المعـــــرفة :

وقيل : المعرفة خمسة أحرف ، فمن وجد في نفسه معناها فليعلم أنه من أهلها :

بالميم: مَلَكَ نفسـه ؛ **وبالعين**: عَبَـدَ الله على صـدق الوفـاء ؛ **وبالرّاء**: رغب إلى الله بالكلية ؛ **وبالفاء**: فوَّض أمره إلى الله ؛ **وبالهاء**: هرب من كل ما دون الله إلى الله .

فكل عارف يملك نفسـه بقَدْر معرفتـه بكبريائه تعالى وعظمتـه ، ويعبد ربَّـه على قَدْرِ معـرفته بـربـوبيته ، ويـرغب إليـه على قَدْرِ معـرفته بفضلـه وامتنانه ، ويُفَوِّضُ أمره إليه على قَدْرِ معـرفته بقدرته ، ويهرب إليه على قدر معرفته بملكه وسلطانه ، فهو عارف .

****

الحديث السادس :

متى يُستجاب الدعاء

حدثنا الشريف : محمد بن عبد السميع العباسي الهاشمي الواسطي، قال : أخبرنا الحاجب أبو شجاع محمد بن الحسين، قال : أنبأنا النقيب أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي الزبيبي الهاشمي، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الجبار السكري، قال : أنبأنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، قال : أنبأنا أبو بكر أحمد بن منصور الرمادي، قال : أنبأنا عبد الرزاق بن همام، قال : أنبأنا معمر عن الزهري عن رجل سماه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : **«يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ : دَعَوْتُ فلمْ يُسْتَجَبْ لِي»**[١].

والعجلة هنا من غلبة الاشتغال بالقصد دون خالقه، وهذا من نقصان المعرفة، فإن العارف لا يشغله شيء عن ربه.

وسنذكر من أحوال العارفين أشياء بقصد التبرك بذكرهم، قال الله تعالى : ﴿ **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ** ﴾، وقال سبحانه : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ** ﴾.

وفي الخبر : «اذكروا الصالحين ؛ عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة».

فلولا ذلك لما كان ينبغي لنا أن نشتغل بذكر غير الله تعالى، ومع ذلك فإن الله تعالى معنا، قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ** ﴾.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

حكي أن عبد الواحد بن زيد رحمه الله قال: قصدت بيت المقدس فأضللت طريقي، فإذا بامرأة أقبلت إلي، فقلت لها: يا غريبة! أنت ضالَّة؟.

قالت: كيف يكون غريباً من يعرفه؟ وكيف يكون ضالاً من يحبه؟.

ثم قالت: خذ رأس عصاي، وتقدم بين يدي مشياً.

فأخذت رأس عصاها ومشيت بين يديها، سبعة أقدام، أقل أو أكثر، فإذا أنا في مسجد بيت المقدس، فدلكتُ عيني، قلت: لعلَّ هذا غلط مني.

فقالت: يا هذا! سيرك سير الزاهدين، وسيري سير العارفين؛ فالزاهدُ يسير، والعارف يطير، وأنَّى يلحق السيَّار الطيَّار؟ ثم غابت فلم أرها بعدها.

قال أبو عمران الواسطي رحمه الله: كنت راكباً البحر، إذ انكسرت السفينة، وبقيتُ أنا وامرأتي، فَوَلَدَتْ ولداً، فأرادت الماء، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا رجل جالس على الهواء، وفي يده رَكْوَةٌ من ياقوتة حمراء في سلسلة من ذهب، وقال: خذا! فسألته عن ذلك؟ فقال: تركتُ هوايَ، فأجلسني في الهواء.

وحكي أن عبد الواحد بن زيد رحمه الله تعالى قال: قلت لأبي عاصم الربعي: كيف صنعت حين طلبك الحجاج؟.

قال: كنت في بيتي، فوقفوا على الباب ليدخل عليَّ الرسول، فصرت مدهوشاً، فإذا بيد أخذت بيدي وجرتني قَدَماً أو أكثر، فنظرت فإذا أنا على جبل أبي قبيس.

من أطاع الله أطاعه كل شيء :

وحكي أن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه قال: مررت براع فقلت له: هل عندك شربة من الماء، أو من اللبن ؟.

قال: أيهما أحب إليك ؟ قلت: الماء.

قال: فضرب بعصاه حجراً صلداً لا صدع فيه، فانبجس منه الماء، فشربت منه وهو أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وبقيت متعجباً !.

فقال الراعي: لا تتعجب ! فإن العبد إذا أطاع الله، أطاعه كلُّ شيء.

وكانت لرابعة البصرية سلة معلقة في بيتها، فكلما أرادت الطعام، ضربتْ بيدها إلى السلة، فوجدت فيها أي الطعام شاءت.

وقال شيخ الطائفة الحسن رضي الله عنه: خرج سلمان الفارسي رضي الله عنه من المدائن ومعه ضيف، فإذا بظباء تسير في الصحراء، وطيور تطير في الهواء، فقال سلمان: ليأتني ظبي وطير سمينان، فقد جاءني ضيف أحب إكرامه، فجاء كلاهما.

فقال الرجل: سبحان الذي سخر لك الطير في الهواء.

قال: أو تتعجب من هذا ؟ هل رأيتَ عبداً أطاع الله، فعصاه الله ؟!.

قال عبد الواحد بن زيد: بينما أنا وأيوب السختياني ـ رحمهما الله تعالى ـ نسير في طريق الشام، فإذا نحن بأسود أقبل إلينا، يحمل كارة حطب، فقلت: يا أسود ! من ربُّك ؟.

قال: ألمثلي تقول هذا ؟! فرفع رأسه إلى السماء، وقال: إلَهي ! حوِّلْ هذا الحطب ذهباً، فإذا هو ذهب! ثم قال: أرأيتم هذا ؟ قلنا: نعم، قال: اللهم رُدَّه حطباً، فصار كما كان أولاً، ثم قال: سلوا، فإن العارفين لا تفنى عجائبهم.

فقال أيوب: بقيت خجلاً من العبد، واستحييت منه حياء ما استحييت مثله قبل ذلك من أحد قط، ثم قلت: أمعك شيء من الطعام؟.

قال: فأشار، فإذا بين أيدينا جام فيه عسل، أشد بياضاً من الثلج، وأطيب ريحاً من السمك، قال: كلوا، فوالله الذي لا إلّه إلا هو، ليس هذا من بطن النحل؛ فأكلنا فما رأينا شيئًا أحلى منه، فتعجبنا!.

فقال: ليس بعارف من تعجب من الآيات، ومن تعجب فهو بعيد من الله، ومن عَبَدَهُ على رؤية الآيات فهو جاهل بالله. رحم الله ذلك الأسود، ما أعرَفه بالله؟!.

- وقد كنت حاجّاً وأردت التلبية، فأخذت منديلاً لي فغسلته، وقطعته نصفين، ثم اتَّـزرت بنصف، وارتديت بنصف آخر لحاجة، فإذا بهاتف يهتف:

أنظر ما بين يديك! فنظرت فإذا البادية فضة كلها، فغمضتُ عينيَّ ومضيت، وقلت: اللهم إني أعوذ بك من كل إرادة سواك.

- وحكي أن رجلاً من العارفين فرغ من أعمال الحج وأركانه، ثم أخذ يحرم مرة أخرى، وقال: لبيك اللهُمَّ لبيك، فقيل له: يا هذا! إن وقت الحج والتلبية قد مضى، فقال: قد أحرمت من الوطن إلى زيارة البيت: والآن أحرمت من البيت إلى صاحب البيت، فقيل: هنيئًا لمن أحرم عن غيره.

- وحكي أن هرم بن حيان رحمه الله، قال: كنت أسير على شاطىء الدجلة، فإذا أنا برجل أقبل إليَّ وعليه سيما العارفين، فسلمت عليه، فقلت له: كيف حالك وشأنك؟ فقال: ﴿ **سُبْحَان رَبِّنَا إنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** ﴾ يا هرم بن حيان! اشتغل بما يعنيك، فقلت: رحمك الله! من

أين عرفتَ اسمي واسم أبي ؟ وما رأيتك قبل اليوم ! .

فقال : أما عرفت أن العارفين يتعارف بعضهم بعضاً بنور المعرفة .

قال : فتعجبت من حسن فصاحته ، وتحيرت من هيبته .

وقال ذو النون رضي الله عنه : بينما أنا أسير، فإذا أنا بقرية والناس يصيحون، فدنوت فإذا أسود يسخرون به ! فرفع رأسه إليَّ وقال : يا ذا النون! إعرف قَدْرَ الله ، ولا تمنَّ على الله ، فإن الحبيب لا يمنُّ على الحبيب .

فسألت عن حاله ؟ قيل : إنه مجنون ، لا يجالس الناس ، ولا يأكل في أربعين يوماً إلاَّ أكلة واحدة ، ثم نظر إلى السماء وقال :

يا غاية همم العارفين ! إنْ عرفتُك فبمواهبك ، وإن شكرتُك فبعصمتك .

الله معهم أينما كانوا :

وقال ذو النون ـ رحمه الله تعالى ـ أيضاً : بينما أنا أسير على شاطىء النيل ، فإذا أنا بجارية منطلقة في النيل ، وقد اضطربت أمواجه ، وتقول : إلّهي ! ترى ما تفعل بي ؟ .

فقلت : يا جارية ! أتشكين منه ، وهو صاحب كل بر وفاجر ! .

فقالت : يا ذا النون ! أنت الذي إذا شكرتَ شكرتَ منه ، وإذا سخطت سخطت عليه .

قلت : يا جارية ! من أين عرفِت اسمي وما رأيتني ؟ .

فقالت : عرفتك بنور معرفة الجبار .

فقلت لها : أتجدين وحشة للوحدة ؟ .

قالت : لا، والذي نوَّر قلبي بنور معـرفته ، ما سكن قلبي قط إلى غيره ، فإنه مؤنس الأبرار في الخلوات ، وصاحب الغرباء في الفلوات .

وقـال جـد والـدتي العـارف الـواسطي رحمـه الله : بينمـا أنـا أمشي في الباديـة ، إذ أعرابيٌّ جـالس منفرداً ، فدنـوت منه وسلمت عليـه ، فرد عليَّ السلام ، وأبى أن أكلِّمه .

فقال : اشتغل بذكر الله ، فإن ذكر الله شفاء القلوب .

ثم قال : كيف يتفـرغ ابن آدم من ذكره وخدمته ، والمـوت في إثره ، والله ناظر إليه ؟! ثم بكى ، وبكيتُ معه .

فقلت له : ما لي أراك فريداً وحيداً ؟! .

قال : ما أنا بوحيد والله معي ، وما أنا بفريد والله مؤانسي ، ثم قام ومضى مسرعـاً ، وهو يقول : سيـدى ! أكثر خلقك مشغولـون عنك بغيرك ! وأنت عوض عن جميع ما فات ، يا صـاحب كل غريب ! ويا مؤنس كل وحيد ! ويا مأوى كل فريد ! وجعل يمر وأنا أتبعه ، ثم أقبل إليَّ وقال :

إرجع ـ عافاك الله ـ إلى من هو خير لك مني ، ولا تشغلني عمن هو خير لي منك ؛ ثم غاب عن بصري .

وحكي أن عبد الـواحد بن زيد ـ رحمـه الله تعالى ـ قال : مـررت براهب فسألته : منذ كم أنت في هذا المكان ؟ .

فقال : منذ أربع وعشرين سنة . قلت : مَنْ أنيسك ؟ .

قال : الفرد الصمد قلت : من المخلوقين . قال : الوحش .

قلت : فما طعـامك ؟ قال : ذكر الله . قلت : من المأكول . قـال : ثمار هذه الأشجار، ونبات الأرض .

فقلت: أمـا تشتـاق إلى أحد ؟ قـال: نعم إلى حبيب قلـوب العـارفين قلت: إلى المخلوقين.

قـال: من كـان شـوقـه إلى الله، فكيف يشتـاق إلى غيـره ؟ قلت: فلم اعتزلت عن الخلق ؟ قال: لأنهم سراق العقول، وقطاع طريق الهدي !.

قلت: ومتى يعرف العبد طريق الهدى ؟.

قـال: إذا هرب إلى ربـه من كل مـا سواه، واشتغـل بذكـره عن كل من سواه.

قال هـرم بن حيان: رأيت أويس بن عامـر ـ رحمه الله تعـالى ـ فسلمت عليه، فقال: وعليك السلام يـا هرم بن حيان، فقلت: كيف عرفت اسمي واسم أبي ؟.

قال: عرفتْ روحي روحك بنور معرفة ربي، قلت: إني أحبك في الله.

قال: ما أظن أن أحداً يحب غير الله، فكيف يحب غير الله ؟.

قلت: أريد الصحبة معك، والأُنس بك.

قال: ما ظننت عارفاً يستوحش عن الله حتى يستأنس بغيره.

قلت: أوصني. قـال: أوصيك بـالله سبحانـه، فإنـه عِوَضٌ عن كل مـا فاتك.

وقال ذو النون المصري رحمـه الله تعالى: كنت أسير في بعض المفاوز فإذا أنـا برجل متـزر بحشيش، مـرتد بحشيـش، فسلمت عليه، فـرد عليَّ السـلام، ثم قـال: من أين الفتى ؟ قلت: من مِصْـرَ. قـال: إلى أين ؟ قلت: أطلب الأُنس بالمولى.

قال: اترك الدنيا والعقبي، يصح لك الطلب.

قلت: هذا كـلام صحيح، صَحِّحْهُ لي. قال: أتتهمنا فيمـا نقول؟ وقد أُعطينا خيراً مما نقول، وهو: المعرفة.

قلت: ما أتهمك، ولكني أريد أن تزيدني نوراً على نور.

فقال: يا ذا النـون! أُنظر فوقك [فنظرتُ] فإذا السمـاء والأرض كأنهما ذهب يتوقد ويتلألأ.

قال: أُغضض بصرك. [فغضضتُ] فصارتا كما كانتا!.

فقلت: كيف السبيل إلى هذا؟ قال: تفرَّد بالفرد إن كنتَ له عبداً.

ـ وقال محمد المقدسي رحمه الله: دخلـت دار المجانين يوماً بالشام، فرأيت فيها شاباً على رقبته غل، وعلى رجليه قيد، مشدود بالسلسلة، فلما وقع بصره عليَّ، قال لي: يا محمد! أتـرى ما فعل بي؟ وأشار بطرفه نحو السماء؛ ثم قال:

جعلتك رسولاً إليه، أن تقول له: لو جعلت السموات غلا على عنقي، والأرضين قيداً على رجلي، مـا التفتُّ منك إلى غيرك طـرفة عين، ثم أنشأ يقول:

عَلَىٰ بُعْـــدِكَ لاَ يَصْبِـــرُ ... مَـنْ عَـــادَتُـــهُ القُـــرْبُ
وَلاَ يَقْـــوَىٰ عَلَى قَطْعِـــ ... ـــكَ مَنْ تَيَّمَـــهُ الْحُـبُّ
إِذَا لَـمْ تَـــــرَكَ الْعَيْـنُ ... فَقَـــدْ أَبْصَـــرَكَ الْقَلْـبُ

****

الحديث السابع :

الله يرضى لكم ويكره لكـــم

حدثنا شيخنا المقري، الإمام الصالح القاضي: أبو الفضل علي الواسطي القرشي رضي الله عنه، قال: قرأت أنا وسديد الدولة محمد بن عبد الكريم، بن إبراهيم، بن عبد الكريم، بن عبد القاهر، بن زيد، بن رفاعة الشيباني، ويعرف بابن الأنباري علي أبي عبد الله، بن أحمد، بن عمر الحافظ، قلنا: أنبأك أبو الحسين أحمد بن محمد؟ فأقرَّ به، قال: أنبأنا أبو الحسين محمد بن عبد الله الدقاق، عن يحيى بن محمد إسحاق بن شاهين، عن خالد بن عبد الله، عن سهل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الله تَعَالَىٰ يرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاَثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا، فيرْضىٰ لكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ ولاَّهُ ٱللَّهُ أمْرَكُمْ؛ وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ ٱلمالِ» (١).

في هذا الحديث الشريف، من رقائق أحكام المعرفة بالله، ما يكفي العارف عن غيره، فإن الأسرار المطوية فيه، هي سُلَّمُ المصطفيْن الأخيار إلى الله تعالى.

أي سادة! إن لله تعالى عباداً اصطفاهم لمعرفته، وخصهم بمحبته، واختارهم لصحبته، واجتباهم لمؤانسته، وقرَّبهم لمناجاته، وحرَّضهم على ذكره، وأنطقهم بحكمته، وأذاقهم من كأس محبته، وفضَّلهم على جميع خلقه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والإمام مسلم.

حتى لم يريدوا به بدلاً، ولا سواه كفيلاً، ولا دونه ناصراً ومعيناً ووكيلاً.

ولقدسبقوا مَنْ دونهم سبقاً، لا بكثرة الأعمال، ولكن بصحة الإرادات، وحسن اليقين، مع دقائق الورع، والانقطاع بالقلب إليه، وتصفية السر عن كل ما دون الحق.

فأذاقهم الله طعم لباب معرفته، وأنزلهم في حظيرة قدسه، لا يصبرون عن ذكره، ولا يشبعون من برِّه، ولا يستريحون لغيره.

فيا طوبى لهم! هم الأقلون عدداً، والأعظمون خطراً، بهم يحفظ الله محبته، حتى يؤدوها إلى نظرائهم.

فيا طوبي لهم! هم الزاهدون فيما رغب فيه الغافلون، والمستأنسون فيما استوحش منه الجاهلون، والمشتاقون إلى ما هرب عنه الساهون، هم الذين نظروا بأعين القلوب، إلى حجب الغيوب، وجالت أرواحهم في الملكوت، فهمتهم في سرهم، وسرهم عند ربهم، به يستمعون، وبه ينظرون، وبه يريدون، وبه يتحركون، قلوبهم بحبها مستأنسة بأنسها.

قال أبو يزيد رحمه الله: الناس يصيحون من إبليس، وهو يصيح مِنِّي!.

قيل له: كيف هذا؟ والمصطفى عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالصياح منه، في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ﴾؟.

قال: لأن الله تعالى أمره في هذه الآية بالاعتصام به، وتفويض الأمر إليه؛ وفرقٌ بين الصياح من إبليس، وبين الاعتصام بالله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

قال ذو النـون رحمه الله تعالى : للعـارف نارٌ، ونورٌ؛ نار الخشيـة ، ونور المعرفة ؛ فظاهره محترق بنار الخشية ، وباطنه منوّرٌ بنور المعرفة .

فالدنيا تبكي بعين الفناء عليه .

والآخرة تضحك بسنِّ البقاء إليه ! .

فكيف يقدر الشيطان أن يدنو منه ظاهراً وباطناً إلا كالبرق الخاطف ؟ أو كالريح العاصف .

أتاه عارض مِنْ قِبَلِ العين أحرقته نار العَبْرة .

وإن أتاه من قِبَل النفس أحرقته نار الخدمة .

وإن أتاه من قِبَل العقل أحرقته نار الفكرة .

وإن أتاه من قِبَل القلب أحرقته نار الشوق والمحبة .

وإن أتاه من قبل السر أحرقته نار القرب والمشاهدة .

فتارة يحرق قلبه بنار الخشية ، وتـارة يتشفى بنور المعرفة ؛ فإذا امتزجت نـار الخشيـة ونور المعـرفـة ، هـاجت ريح اللطف من سـرادقـات الأُنس والقربة ، فيظهر صفاء الحق للعبد ، فتراها تلاشت الأنانية وبقيت الألوهية كما هو في الأزل .

قال أبو سليمان رحمه الله تعالى : يفتـح للعارف وهو نائم على فراشه ، ما لا يفتح لغيره وهو في صلاته .

قـال أبو يـزيد رحمـه الله : أدنى مقـامات العـارف أن يمر على المـاء ، ويطير في الهواء .

وأعلاها : أن يمر على الدارين ، من غير أن يلتفت إلى من سواه .

قال أبو بكر الواسطي رحمـه الله : دوران العارف مع محبوبه على أربعة أوجه :

١ ـ **سرور المعرفة** : وهو ممزوج برؤية حسن العناية .

٢ ـ **وحلاوة الخدمة** : وهو ممزوج بذكر المِنَّة .

٣ ـ **وأنس الصحبة** : وهو ممزوج بلذائذ القربة .

٤ ـ **وخوف المفارقة** : وهو ممزوج بتحقيق كمال القدرة .

وقال ذو النون رحمه الله تعالى : العارف بين البر والذكر، لا اللَّهُ يَمَلُّ من بِرِّه، ولا العارفُ يشبع من ذكره .

سُئل بعضهم عن قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ ؟ .

فقال : أضحك العارفين بسرور معرفته ، ثم أبكاهم من خوف مفارقته ؛ وأمات من شاء بسيف قطيعته ، وأحيا من شاء بروح وصلته ؛ ليعلم الخلائق : أنه فَعَّالٌ لِمَا يُريد .

وقيل لعائشة رضي الله عنها : كيف يُحَاسَبُ المؤمنون العارفون ؟ .

فقالت : ليس مع العارفين حساب ، ولكن معهم عتاب .

وروي أن سليمان عليه الصلاة والسلام ، نظر إلى مملكته يوماً ، فأمر الله تعالى الريح حتى كشف عورته ، فقال للريح : ردِّي عليَّ ثوبي ! فقال الريح : ردَّ قلبك إلى مكانه ! .

فطوبى لأهل المعرفة ، عرَّفهم أنفسهم قبل أن يعرفوه ، وأكرمهم قبل أن يعرفوا الكرامة .

أولئك أقوام أنفسهم روحانية ، وقلوبهم سماوية ، وهمومهم مرضية ، وصدورهم جزعة ، وقلوبهم خائفة ، وأعينهم دامعة .

عقلوا فعلموا ، ووجدوا فرحلوا ، وانفتح لهم نور القلب .

لِلَّـهِ قَـوْمٌ مُصْطَفَـوْنَ لِنَفْسِـهِ ... اخْتَـارَهُمْ مِنْ سَـالِفِ ٱلأَزْمَـانِ
اخْتَـارَهُمْ مِنْ قَبْلِ فِطْـرَةِ خَلْقِهِمْ ... فِيهِمْ وَدَائِعُ حِكْمَـةٍ وَبَيَـانِ

****

الحديث الثامن :

حيـــــاء الوجه والقلب

أخبرنا الشيخ الصالح الثقة : أبو الفتح محمد بن عبد الباقي ، بن أحمد بن سلمان ، قال : أنبـأنا أبو عبد الله مالك ، بن أحمـد بن علي المالكي ، قال : أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى القرشي ، قال : أنبأنا أبو إسحٰق إبراهيم بن عبـد الصمد الهاشمي ، قال : أنبأنـا أبو مصعب أحمد ابن أبي بكر الزهري ، عن مالك ، عن ابن شهاب الزُّهري ، عن سالـم ، عن أبيـه ، أن رسول الله ﷺ ، مـرَّ على رجل وهو يعظ أخـاه في الحياء ، فقـال رسول الله ﷺ :

« **الحياءُ مِنَ الايمانِ** »(١).

والحياء الذي يشمل الـوجه من الناس أُنموذج عن الحيـاء الذي يشمل القلب من الله تعالى .

والحيـاء الشـامل للـوجـه وللقلب : هو مـن الإيمان بـالله ، وهـو طـور العارفين بالله سبحانه وتعالى ، الذين جعل قلوبهم عَيْبَةَ أسراره .

وكـذلك فإن قلـوب العارفيـن ، خزائن الله في أرضـه ، وضع فيهـا ودائع سره ، ولطائف حكمته ، ودقائق محبته ، وأنوار علمه ، وأمانة معرفته .

فكلامهم هو الكشف عما يشاهـده القلب ، وإظهار علوم السر، وبيان معـاملـة الضميـر، من تمييـز الانفصـال عن الاتصـال ، وبيـان الأسبـاب الشاغلة عن الحق ، من الأسباب الداعية إلى الحق .

أما الداعي إلى الخَلْقِ : فالدنيا ، والنفس ، والخلق .

وأما الـداعي إلى الحقِّ : فالعقل ، واليقين ، والمعرفـة ، كما ورد : «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ » . يعني من عرف ما لنفسه ، عرف ما لربه .

---

(١) رواه مسلم .

وكلامهم يدور على خمسة أوجه: بِهِ، وله، ومنه، وإليه، وعليه.

وليس في كلامهم: أنا، وإني، ونحن، ولي، وبي.

لأن ألفاظهم فردانية، وحركاتهم صمدانية، وأخلاقهم ربانية، وإرادتهم وحدانية؛ لا يعرف إشارتهم إلا من له قلب حريق، فيه خزائن الأسرار، وجواهر القُدُس، وسرادقات الأنوار، وبحار الوداد، ومفاتيح الغيب، وأودية الشوق، ورياض الأُنس، فكلما أبرز العارف لسان الحكمة، من ينبوع المعرفة بإشارات: استأنس بها قلوب المريدين والمشتاقين.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: القلوب كالقدور، ومغارفها الألسن، فكل لسان يغرف لك ما في قلبه.

وقيل لأبي بكر الواسطي ـ رحمه الله تعالى ـ ما تقول في كلام أهل المعرفة؟.

فقال: إنَّ مثل المعرفة، كمثل سراج في قنديل، والقنديل معلق في بيت، فما دام السراج في البيت، يكون البيت مضيئاً، وربما يفتح الباب فيقع ضوء السراج خارج البيت ويضيء.

كلام أهل المعرفة يقع ضياؤه على قلوب أهل النور، فتصير أعينهم دامعة، وألسنتهم ذاكرة، يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

مَثَلُ نفس العارف كمثل البيت، ومثل قلبه كمثل القنديل، دهنه من اليقين، وماؤه من الصدق، وفتيله من الإخلاص، والزجاجة من الصفاء والرضاء، وعلائقه من العقل.

فالخوف: نار في نور، والرجاء: نور في نار، والمعرفة نور في نور.

فالقنديل معلق بباب الكَوَّة، إذا فتح العارف فاه بالحكمة التي في قلبه، هاج في كوَّة فمه نور من الأنوار التي في قلبه، فيقع ضياؤه على قلوب أهل النور، فيتعلق النور بالنور.

وإن بعض القول أشد ضوءًا من النهار، وبعضها أشد ظلمة من الليل.

وكلام أهل المعرفة: كنز من كنوز الرب سبحانه، معادنه قلوب أهل المعرفة، أمرهم الله تعالى بالإنفاق منه على أهله في قوله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُو أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .

قيل لبعض العارفين: أي شيء أضوأ من الشمس؟ قال: المعرفة.

قيل: أي شيء أنفع من الماء؟ قال: كلام أهل المعرفة.

قيل: وأي شيء أطيب من المسك؟ قال: وقت العارف.

قيل: وما حرفة العارف؟ قال: النظر إلى صنع الربوبية، وأعلام لطائف القدرة.

مُراد الصالحين:

قيل لأبي سعيد البلخي رحمه الله تعالى: لم كان كلام السلف، أنفع من كلام الخلف؟.

قال: لأن مرادهم كان: عزُّ الإسلام، ونجاة النفوس، والشفقة على الإخوان، ورضا الرحمن.

ومرادنا: عز النفس، وثناء الناس وطلب التنعم في الدنيا!.

فالعبد إذا أطاع ربه، رزقه نهلة (أي شربة) من عين المعرفة، وأنطق بها لسانه؛ وإذا ترك طاعته لم يسلبها، ولكن أبقاها في قلبه، ولم ينطق بها

لسانه، ليكون ذلك حسرة عليه، وابتلاء بأنواع المحن.

وما من مؤمِنَيْنِ يلتقيان، فيذكران الله، إلاَّ ويزيد الله تعالى في قلوبهما نورَ المعرفة، قبل أن يتفرقا.

إن الله تعالى أطلع أهل المعرفة، على تلاطم أمواج بحار خواطر القلوب، وأَشْرَفَهُمْ على خزائن الأسرار، وبواطن العلوم التي لا يُحصىٰ عددها، ولا ينقطع مددها، ولا يُدْرَكُ قعرها، ولا يفني عجائبها، حتى يغوصوا بنور المعرفة، في قعر بواطن إشاراتها المكنونة، في معانيها المخزونة فيستخرجوا عجائب فوائد ولطائف زوائد، وحقائق إشارات، يحترق منها قلوب المحبين، ويستأنس بها أرواح المريدين، وهي نور من أنوار الهداية، يهتدي به العبد إلى طريق حسن الرعاية، إذا أدركه من الحق: التوفيق والعناية.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: لقيت الحكماء فوجدت أكثرهم مفاليس! يفتحون من كيس غيرهم.

وكان لليث المصري ـ رحمه الله تعالى ـ أخ، وكان بالإسكندرية، فلما قدم إليه قال: إني كنت مقبلاً على ربي.

قال: فأين فوائد إقبالك على ربك؟ فسكت.

فقال الليث: العبد إذا أقبل على الله بصدق الوفاء، يمدُّهُ الله بفوائد لم تخطر على قلب بشر.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يتكلم ذات يوم، فصاح رجل في مجلسه، ومزق ثوبه، فقيل له: ما تقول فيه؟.

قال: كلام أهل المعرفة، كلما نبع من عين سر الوحدانية، قرع قلب المحترق بنيران الشوق والمحبة، فتلاشت عن صاحبه صفات الإنسانية.

كلام المتقين بمنزلة الوحي .

وجرت كلمة على لسان بعضهم ؛ فقيل له : من حدَّثك بهذا ؟ .

قال : حدثني قلبي ، عن فكري ، عن سرِّي ، عن ربِّي .

فإسناد الحكمة : وجودها ، وهي ضالة المريد ، حيث ما وجدها أخذها ، فلا يبالي من أي وعاء خرجتْ ، وبأي لسان نطقتْ ، ومن أي قلب نُقلتْ ، أو على أي حائط كُتبتْ ، أو من أي كافر سُمعتْ .

قيمة الحكمة :

وقد ورد : «من أراد أن يؤتيه الله علماً من غير تعلم ، وهدى من غير هداية ، فليزهد في الدنيا» .

وإن للحكمة أهلاً وزماناً ، وقد مضى زمنها والأكثرون من أهلها ، وليس علينا إلا أثر المصيبة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

أُطلبوا مصابيح كلام العارفين قبل وفاتهم ؛ نعمة اعرفوا شرفها ، وكمال فضلها ، وإنما اختار لقمانُ الحكمةَ لشرفها .

هي : برهان الصدِّيقين ، ونزهة المتقين ، وفردوس العارفين ، وميراث النبيين والمرسلين ؛ فاطلبوها قبل ذهابها .

مَصَابيحُ الأَنَامِ بِكُلِّ أَرْضٍ هُمُ الْعُلَمَاءُ أَبْنَاءُ الْكِرَامِ
تَلأْلأَ عِلْمُهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ كَنُورِ الْبَدْرِ لاَحَ بِلاَ غَمَامِ

****

الحديث التاسع :

عفـــــو الله تعالى

أخبرنا العبد الصالح الثقة : أبو غالب عبد الله بن منصور ـ بجامع واسط ـ أخبرنا أبو عبد الله محمد بن علي ، بن الحسين السلمي ، قال : أنبأنا أبو الحسن بن أبي الفتح ، الضرير العثماني ، قال : أنبأنا عمر بن محمد المقري ، قال : أنبأنا عبد الرحمن بن أحمد ، بن الحجاج ، قال : أنبأنا أحمد بن محمد ، بن أبي الرجاء ، قال : أنبأنا وكيع بن الجراح ، قال : حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سويد ، عن أبي ذرٍّ ، رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا : رَجُلٌ يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ : اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا ، فَيُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُهَا ، فَيُقَالُ لَهُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ، وعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنكِرَ ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ ، فَيُقَالُ لَهُ : فإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً . فَيَقُولُ : رَبِّ ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لاَ أَرَاهَا ها هُنَا ! قال : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ» .

ثُمَّ تلا : ﴿ **فأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ .

هذا الإشفاق هو : شيء من أسرار اليقين بالله ، وحال من سلطانه ، يفرغه في قلوب أهل المعرفة به ، ولهذا الحديث الشريف شأن جليل ، ينبىء عن كرم إلٰهي فوق تعبير اللسان ، يعرفه العارفون ، ويزلق به الغافلون ، ويزداد خوفاً من الله به الموفقون .

ألسنة العارفين :

أي سادة ! من أراد أن يتكلم بلسان أهل المعرفة ، فينبغي أن يحفظ أدب كلامه ، فلا يكشف دقائقه إلا عند أهله ، وأن لا يُحَمِّل المريد فوق طاقته ، ولا يمنع كلامه من كان من أهله ، ويكون كلامه مع أهل المعرفة : بلسان أهل المعرفة .

ومع أهل الصفا : بلسان الصفا .

ومع أهل المحبة : بلسان المحبة .

ومع أهل الزهد : بلسانهم .

ومع كل صنف : على قَدْرِ مراتبهم ومنازلهم ، وقدْرِ عقولهم ؛ فإن الله تعالى جعل للعارف هذه الألسن .

نعم ؛ كلها تتلاشى عند ظهور سلطان الحق ، وينبغي أن لا يُحدِّث بحديث لا يبلغ عقل المستمع إليه ، فيكون ذلك فتنة ، فإن أكثر الناس جاهلون ! اشتَغلوا بعلوم الظواهر ، وتركوا علم تصحيح الضمائر ، فلا يحتملون دقائق كلام العارفين .

لأن كلماتهم لاهوتية ، وإشاراتهم قدسية ، وعباراتهم أزلية ، فلذلك ينبغي للمستمع أن يكون معه السراج الأزلي ، والنور الديمومي .

ويقال : لسان الحال ، أفصح من لسان المقال ؛ فمن رضي بالحال ، دون وليِّ الحال ، صار مخذولاً عن الحال ومحجوباً عن ذي الجلال ! .

وأي دهشة أشد من دهشة العارف؟ إن تكلم عن حاله هلك! وإن سكتَ احترق ، فمن ورد قلبه الحضرة كلَّ لسانه ، ومن غاب قلبه عن الحضرة كثر كلامه .

قال ذو النون رحمه الله : ما رأيت محدِّثًا في قوم، يحدثهم بغفلة، إلاَّ كان ذلك قسوة.

وقال بعضهم: سكوت العارف حكمة، وكلامه نعمة.

ويقال: ليس على تحقيق في المعرفة، من يُحدِّثُ بحديث المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف أبناء الدنيا ؟.

ما تكلمتُ مع أحد من الناس، إلاَّ ودعوته إلى الله، ثم كلمته.

من لم يكن له حلاوة المعرفة، ورؤية المِنَّة، وشكر النعمة، ولذائذ القربة، وخوف المفارقة، وأُنس الصحبة، وإخلاص العبادة، وسرور الهداية، فليس له أن يتكلم بكلام أهل المعرفة، وإن تكلم فلا يحمِّل فوق الطاقة، ولا يمنع أهل الحاجة، ولا يضيِّع أهل الغفلة.

وحكي أن رجلاً جاء إلى عارف، قال: حدثني !.

فقال: إن مثلي معك، كرجل وقع في القاذورات، فذهب إلى العطار، وقال: أين الطِّيب ؟.

فقال العطار: اذهب اشتر الأشنان (ما يغسل به)، واغسل نفسك ولباسك، ثم تعال فتطيَّبْ !.

وكذلك أنتَ، لطَّخْتَ نفسك بأنجاس الذنوب؛ فخذ أشنان الحسرة، وطين الندامة، وماء التوبة والإنابة، وطهر ظواهرك في إجَّانة (أي إناء) الخوف والرجاء، من أنجاس الجُرم والجفاء، ثم اذهب إلى حمام الزهد والتقى، واغسل نفسك بماء الصدق والصفاء؛ ثم ائتني حتى أطيِّبك بعطر معرفتي !.

قال بعض الناس لعارف: إني لا أعرف كلامكم ! قال: كلام الأخرس لا يعرفه إلاَّ أمه.

ومن كلام عيسى عليه الصلاة والسلام: « يا صاحب الحكمة ! كن كالطبيب الناصح، يضع الدواء حيث ينفع، ويمنع الدواء حيث يضر.

لا تضع الحكمة في غير أهلها فتكون جاهلاً، ولا تمنعها من أهلها فتكون ظالماً، ولا تكشف سرك عند كلِّ أحد، فتصير مفتضحًا.

وقال ذو النون رحمه الله: رأيت رجلاً أسود يطوف حول البيت، ويقول: أنت، أنت، أنت ! ولا يزيد على ذلك اللفظ شيئاً.

فقلت: يا عبد الله ! أي شيء عنيتَ به ؟ فأنشأ يقول:

بَيْنَ الْمُحِبِّينَ سِرٌّ لَيْسَ يُفْشِيهِ ... خَطٌّ وَلاَ قَلَمٌ عَنْهُ فَيَحْكِيهِ

نَارٌ تُقَابِلُهُ أُنْسٌ يُمَازِجُهُ ... نُورٌ يُخَبِّرُهُ عَنْ بَعْضِ مَا فِيهِ

شَوْقِي إِلَيْهِ وَلاَ أبْغِي بِهِ بَدَلاً ... هٰذِي سَرَائِرُ كِتْمانٍ تُنَاجِيهِ

****

الحديث العاشر:

رسول الله أول من يدخل الجنة

أخبرنا الشيخ: أبو طالب محمد بن علي، عن أبي القاسم علي بن أحمد الرزاز، قال: أنبأنا أبو الحسين محمد بن مخلد ـ في سنة ثماني عشرة وأربعمائة ـ قال: أنبأنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، قال: أنبأنا الحسن بن عرفة العبدي، قال: أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« آتِي يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ بَابَ ٱلجَنَّةِ فأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فيقول: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لاَ أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ »(١).

قد علم أهل العلم بالله، أن الجنة التي هي باب الخير الإلَهي الأبدي، لا تُفتح إلاَّ بفتح محمد ﷺ لها، فهو الفاتح لكل خير دنيوي وأخروي، والعِلْم بشأنه هو سر العلم بالله تعالى، فمن أراد أن يفتح له أبواب الخير الدنيوي والأخروي، فعليه أن يتعلق بأذياله، فإن في نفحاتها: علم المعرفة.

حقيقة علم المعرفة:

أي سادة! علم المعرفة، هو العلم بالله تعالى، وهو نور من أنوار ذي الجلال، وخصلة من أشرف الخصال، أكرم الله به قلوب العقلاء، فزينها بحسن جماله، وعظيم شأنه، وخص به أهل ولايته ومحبته، وفضَّله على سائر العلوم، وأكثر الناس عن شرفه غافلون، وبلطائفه جاهلون، وعن عظيم خطره ساهون، وعن غوامض معانيه لاهون، فلا يدركه إلاَّ أرباب القلوب الموفقون.

وهذا العلم: أساس، بنيت عليه سائر العلوم؛ به ينال خير الدارين، وعز المنزلين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم.

وبه يعرف العبد عيوب نفسه، ومنن ربه، وجلال ربوبيته، وكمال قدرته.

به يطير سر العبد بجناح المعرفة، في سرادقات لطائف القدرة، ويجول حول منتهى العزة، ويرتع في روضات القدس، فلا تتم العلوم كلها دون امتزاج شيء منه بها، ولا تفسد الأعمال إلا بفقده، ولم تسكن إليه إلاَّ قلوبٌ نظر الله إليها: بالرأفة والرحمة، وأمطر عليها أمطار الفهم والبلاغة، وطيبها برياحين اليقين والفطنة، وجعلها موضع العقل والفراسة، وطهرها من أدناس الجهالة والغفلة، ونوَّرها بمصابيح العلم والحكمة، قال الله تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ .

وكل عارف يخشي الله تعالى ويتقيه، على مقدار علمه بالله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾ .

بنوره يعرف وساوس الشيطان، الدافعة إلى المعاصي والزلاَّت، ويحذر به آفات الإرادات.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

وفي الخبر: إن من العلم كهيئة المكنون المخزون، لا يعرفها إلا أهل العلم بالله، ولا ينكرها إلا أهل الغِرَّة (الغفلة) .

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أي الأعمال أفضل؟ فقال: العلم بالله.

أفضل العبـــــاد :

وروي أن موسى عليـه الصلاة والسـلام قال : « يارب ! أي العبـاد أكثر حسنة ، وأرفع درجة عندك ؟ قال : أعلمهم بي » .

وقال الإمـام الجليل سيدنـا علي بن أبي طالب رضي الله عنـه ، وكرم الله وجهه : « أعلم الناس بالله ، أشدهم تعظيمًا لحرمة : لا إلّه إلاَّ الله » .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : «من ازداد بالله علماً ، ازداد وَجَلاً» .

وروي أن الله ــ تعالى ــ أوحى إلى داود عليه الصـلاة والسلام : « أن يـا داود! تعلم العلمَ النافع . قال : إلّهي ! وما العلم النافع ؟ .

قال : أن تعرف جلالي ، وعظمتي ، وكبـريائي ، وكمال قدرتي على كل شيء ، فإن هذا الذي يقربك إليَّ ، وإني لا أعذر بالجهالة من لقيني» .

وقيل لمحمد بن الفضل السمرقندي ـ رحمه الله تعالى ـ ما العلم بالله؟ .

قال : أن ترى قضاءه في الخلق مُبْرَماً ، والضرَّ والنفعَ والعزَّ والذلَّ منه

وترى نفسك لله ؛ والأشيـاء كلها في قبضته ؛ وأن لا تختـار لنفسك غير اختياره ؛ وتعمل لله خالصاً .

يا بني ! اجتهد في تعلم علم السر، فإن بركته كثيرة ، أكثر مما تظن .

يا بني ! من تعلم علم العلانيـة دون علم السر (وهـو ملاحظـة الخالق تعالى) ، هلك وهو لا يشعر.

يـا بني ! إن أردت أن يكـرمك الله بعلم السـر ! فعليك ببغض الـدنيـا ، واعرف حرمة الصالحين ، وأحكم أمرك للموت .

قال الله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ ﴿ وَعلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ ﴿ وَعَلَّمْناهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ إلا أنه قال في مـوضع آخر: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

فرُبَّ رجل كثير الروايات جاهل بالله .

إن علم المعرفـة : فضل من الله ، يؤتيه من اصطفاه من خلقـه ، واجْتباه لصحبته .

جـاء في الخبـر: العلم علمـان : علم باللسـان ، وهـو حجـة الله على العباد ، وعلم القلب ، وهو العلم الأعلى ، لا يخشي العبد من الله إلاَّ به .

وقال ﷺ : « أشدكم لله خشية أعلمكم بالله » .

درجات العلمــــاء :

وقال سفيان الثوري رحمه الله : العلماء ثلاثة :

١ ــ عالم بأمـر الله ، غير عـالـم بالله ؛ فـذلك العالـم الفـاجر، الـذي لا يصلح إلاَّ للنار ! .

٢ ـ وعالم بالله ، غير عالم بأمره ؛ فذلك ناقص ! .

٣ ـ وعالم بالله ، وبأمره به ؛ فهو العالم الكامل .

قيل لبعض العارفين : ما سبيل معرفـة الله ؟ قال : ليس يُعرف بالأشياء ؛ بل تُعرف الأشيـاء به ، كمـا قال ذو النون ــ رحمه الله تعـالى ـ عـرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله .

وقـال إبـراهيم عليـه الصـلاة والسـلام : إلهي ! لـولا أنت ، كيف كنتُ أعرف من أنت .

ومثله عن رابعة العـدوية ، قالت لذي النون ـ رحمهمـا الله تعالى ـ كيف عرفتَ الله ؟ .

قال : رزقني الحيـاء ، وكساني المراقبة ، فكلما همـمـت بمعصية ذكرتُ جلال الله ، فاستحييت منه .

مثل المعرفـــــة :

مَثَلُ المعرفـة ، كشجرة لها ستـة أغصان ، أصلهـا ثابت في أرض اليقين والتصديق ، وفرعها قائم بالإيمان والتوحيد .

فأول أغصانها : الخوف ، والرجاء ، مقرونان بغصن الفكرة .

والثانـي : ا لصدق ، والوفاء ، مقرونان بغصن الإخلاص .

والثالث : الخشية ، والبكاء ، مقرونان بغصن التقوي .

والرابــع : القناعة ، والرضا ، مقرونان بغصن التوكل .

والخامس : التعظيم ، والحياء ، مقرونان بغصن السكينة .

والسادس : الاستقامة ، والوفاء ، مقرونان بغصن الود والمحبة .

ويتشعب من كل غصن مـا لا نهـايـة لـه في العـدد من أنـواع الخيـر ، والصدق في المعـاملة ، وأنس الصحبـة ، وفرائد القـربة ، وصفـاء الوقت ، وغير ذلك مما لا يصفه الواصفون .

وعل كل شعبة من ثمار شتى ، لا يشبه لـون أحدها الآخر ، ولا طعمها ، تحتها أنـوار التوفيق ، جاريـة من ينبوع الفضل والعنايـة ، والناس في ذلك على تفاوت الدرجات ، وتباين الحالات .

فمنهم : من أخـذ بفرعهـا ، غافل عـن أصلها ، محـروم من أغصانهـا ، محجوب عن حلاوة ثمارها .

ومنهم : من تمسك بفروعها .

ومنهم : من أخـذ بأصلهـا ، وأخذ كلهـا من غيـر أن يلتفت إلى كلهـا ، لانفراده بـوليِّه خـالقها ؛ ومن لم يكن له نـور من سراج التـوفيق ، ولو جمع الكتب والأخبار ، والأحاديث كلها ، لا يزداد إلا بعداً ونفوراً ، كمثل الحمار يحمل أسفاراً ! .

يقـال : إن رجلاً جـاء إلى الإمـام عليٍّ عليـه السلام فقـال : علمني من غرائب العلم ! .

قال : مـا فعلتَ في رأس العلم ؟ قال : وما رأس العلم ؟ قـال : أعرفتَ ربك ؟ قال : نعم . قال : ما فعلتَ في حقه ؟ قال : ما شاء الله .

قال : انطلق فأحكم هذا ، فإذا أحكمته فأْتني أعلمك غرائب العلم .

قيل : الفرق بين علم المعرفة وغيرها ، كالفرق بين الحيِّ والميت .

****

الحديث الحادي عشر :

المـــرء في ظل صـــدقته

أخبرنا شيخنا الإمـام المقري الجليل الشيخ : أبو الفضل علي الواسطي قـدس الله روحه ، قـال أنبأنا أبـو القاسم عبـد الملك بن محمد الـواعظ ، قال : أنبأنـا أبو حفص عمر بن محمـد بن عبد الـرحمن الجمحي ، قال : أنبأنا علي بن عبـد العزيز، عن ابـن المبارك ، عن حرملـة بن عمران ، عن يزيـد بن أبي جندب ، عـن أبي الخير، عن عقبـة بن عامر، رضـي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« ٱلْمَرْءُ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ـ أَوْ قَالَ : ـ « يُحْكَمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ » .

هذا لكونه تـرك شيئاً قليلاً من ما تحبه نفسه لـربه ، فكيف إذا خرج عن نفسه بالكلية ؟ .

روي أن الله تبارك وتعالى ، أوحى إلى داود عليه السلام : «بشر المذنبين بأني غفور، وأنذر الصِّدِّيقين بأني غيور» .

وروي أن يـوسف عليـه الصـلاة والسـلام : لمـا أُلقي في الجب ، كـان يقول : من لعب في خدمة مولاه ، فغيابة الجب مأواه ! .

من أقوال العـــارفين :

وهنا كلمـات من طرائف مختصرات القوم ، تنشط بهـا همم الموفقين ، يقول قائلهم رضي الله تعالى عنهم :

حق لمن عـرف المولىٰ ، أن لا يشكـو من البلـوى ، إذا لم يعرف العبـد المـولى ، فكل لسـان لـه دعـوى ، ليس للعـارف دعـوى ، ولا للمحب شكوى .

إذا سبقت من الربِّ العناية ، هُزمت من العبد الجناية .

إذا سبقت العناية ، وجبت الولاية ، بالعناية تحصل الولاية ، والولاية تهدم الجناية .

ليس الشأن في الولاية ، لكن الشأن في العناية ، لم يدرك الولاية من فاتته العناية ؛ المصِرُّ من أسر السر؛ طرح الخلق وجودُ الحق ؛ اطرح الدعويٰ تجد المعنى .

من كان له باطن صحيح ، فجميع كلامه مليح .

لا تغتر بصفاء الأوقات ، فإن تحتها فنون الآفات .

لا تغتر بصفاء العبودية ، فإن فيها نسيان الربوبية .

خلِّ الدارَيْنِ للطالبين ؛ واستأنس برب العالمين .

استهد بالله ، فنعم الدليل ؛ وتوكل عليه ، فنعم الوكيل .

مادام قلب العبد بغير الله معلقاً ، كان باب الصفاء عنه مغلقاً .

الأُنس بالله نور ساطع ، والأُنس بالمخلوق هَمٌّ واقع .

معدن الأسرار، قلوب الأبرار؛ قلوب الأبرار حصون الأسرار.

القلب إذا ابتلي بالمربوب ؛ عزل عن ولاية المحبوب .

خير الرزق ما يكفي ، وخير الذكر الخفي .

توكل تكف ، وسل تعط ؛ ليس باللبيب من اختار على الحبيب ؛ بقدر ما تتعنَّىٰ ، تنال ما تتمنى .

العبد إذا سخط عليه مولاه ، سخط عليه ما سواه .

و إذا رضى عنه مولاه ، رضي عنه ما سواه .

عذر الحبيب عند الحبيب مبرور، وذنب الحبيب عند الحبيب مغفور.

من أراد المولى، فليتهيأ للبلوي :

هَوِّنْ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا عَلَيْكَ ... وَٱجْعَلْ الْحُزْنَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ

الموت جسر مهيب، يوصل الحبيب إلى الحبيب، ينبغي أن يكون العبد مشغولاً، بما يكون غداً عنه مسؤولاً، اجعل التقيَّ جليسك، والدعاء أنيسك.

أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

الحب يُحْرق، والشوق يُقلق، هذا سرور الخبر، فكيف سرور النظر ؟.

كل نعمة دون الجنة فانية، وكل بلاء دون النار عافية.

التوبة تطهر الحوبة؛ الاعتراف يهدم الاقتراف.

هَبْ أنَّ الله قد عفا عن المسيئين، أليس قد فاتهم ثواب المحسنين؟.

أعِدَّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً.

أُطلب ما يعنيك، بترك ما لا يعنيك.

الرزق مقسوم، والحريص محروم؛ العبد حر إذا قَنِع، والحر عبد إذا طَمع؛ أخرج الطمع من قلبك، تحل القيد من رجلك، قدم إلى الحشر زادك، فإن إلى الله معادك.

الدنيا دنية، وحبها خطية؛ الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة.

الدنيا كلها غرور، والعقبى كلها سرور؛ الدنيا معدن الخطأ، والعقبىٰ معدن العطاء.

الدنيا معدن الجفاء، والعقبى معدن الوفاء.

أساس التقوى ترك الدنيا؛ أخوف الناس آمنهم.

مـا أغفلك عما خُلقتَ لـه ؟ وما أعجـزك عما أمـرت له ؟ منعك طـول الأمل، عن ذكر الأجل ! لا تعص مولاك بطاعة هواك .

رأس الوفاء : ترك الجفـاء ، إن أردت المكارم : فاجتنب المحارم ؛ قليل يكفيك ، خير من كثير يُطغيك .

المؤمن : كثير الفعال ، قليل المقال .

والمنافق : قليل الفعال ، كثير المقال .

اتَّقِ الله إذا خلوت ، يستجبْ لك إذا دعوت .

غضَبُ الله أشد من ناره ، ورضوانه أكبر من جنته ، دع التدبير إلى الملك الخبير.

طلب الحلال ، أشد من نقل الجبال .

كل همٍّ وذكـر لغير الله ، فهو حجـاب بينك وبين الله ؛ لا تقع المـؤانسة بين العبد وبين ربه ، حتى تقع الوحشة بينه وبين خلقه .

لا يصل العبـد إلى الحق ، حتى يعتزل عن صحبـة الخلق ؛ حسبي من سؤالي ، علمه بحالي .

كُلُّ مَحْبُوبٍ سِـوَىٰ ٱللَّـهِ سَرَفْ ... وَعَنَــاءٌ وَبَــلاَءٌ وَتَلَـفْ
وَهُمُــومٌ وَغُمُــومٌ وَأَسَـفْ ... مَـا خَـلاَ ٱلـرَّحْمٰنَ مَـا عَنْـهُ خَلَفْ

ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها ! .

دُرْتُ حَــوْلَ الْمَشْــرِقَيْنِ ... ثُــمَّ دُرْتُ الْمَغْــرِبَيْـنِ
فَــوَجَــدْتُ الأَمْــرَ كُــلاًّ ... لِمَلِيــكِ ٱلثَّقَلَيْــنِ
حُبُّــهُ مُنْيَــةُ قَلْبِي ... ذِكْــرُهُ قُــرَّةُ عَيْنِي

الحديث الثاني عشر :

العارفون مظاهر رحمة رب العالمين

أخبرنا الشيخ الجليل المقري العارف بالله، خالي: أبو بكر الأنصاري الواسطي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، قال: أنبأنا أبو القاسم منصور بن النعمي، قال: أنبأنا أبو نصر عبد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي، قال: أنبأنا أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبي، قال: أنبأنا أبو حامد أحمد بن محمد بن بلال البزاز، قال: أنبأنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم، قال: أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عمر بن دينار، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

« الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ ٱلرَّحْمنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ »(١).

هذا الحديث الشريف، فيه من أسرار العلم بالله العجائب، أَمَرَ به المصطفى ﷺ بالرحمة لمن في الأرض من المخلوقين، لتحصل بذلك الرحمة للعبد من كل من في السماء من العُلْويين، فإن السماء طريقُ تنزلِ الرحماتِ الربانية، ومحل أُنبوب الإفاضات الرحموتية، ومقر الملائكة الذين جعلهم الله وسائط أسراره بينه وبين خلقه.

فإذا ألقى الرحمة في سر ملك الرزق[أعان] طالب الرزق.

وإذا ألقاها في سر كاتب الأعمال، أنساه السيئات.

وإذا ألقاها في سر الرقيب، أعان ورفق.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والترمذي

والرحمة حال العارف، ومعراج قلبه إلى ربه، وإن عباد الله العارفين، مظاهر لرحمة رب العالمين في المخلوقين، وهو سبحانه أرحم الراحمين.

أي بني ! إذا تحققتَ بالرحمة للمخلوقين رُحمتَ، وإذا جالست العارفين نجحت، وإذا سألت الحكماء الربانيين تعلمت.

أي بني ! اعلم أن لكل شيء مفتاحاً، ومفتاح العلم السؤال، فإن قدر المريد على أن يجالس أهل المعرفة، فيقتبس من علمهم، وتحقيق رمزهم، ولطائف إشاراتهم، فبخ، بخ، فإن شرف العلماء الربانيِّين، أكبر من أن يدركه أحد غير الله، لأنهم أحبَّاءُ الله، وأمناء سره.

فليغتنم حرمتهم، وليحرك خواطرهم بحسن السؤال، فإن أمواج خواطر العارفين لا تفني عجائبها؛ وكفى للمرء جهلاً إمساكه عن التعلم، واستكفاؤه بما عنده ! وقد قال الله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وقال النبي ﷺ: « جَالِسُوا الْكُبَرَاءَ، وَسَائِلُوا الْعُلَمَاءَ، وَخَالِطُوا الْحُكَمَاءَ ».

أدب طلب العلم:

قال ذو النون رحمه الله تعالى: وُصف لي رجل بالمغرب، فارتحلتُ إليه، فوقفت عنده أربعين صباحاً، فلم أجد وقتاً أقتبس به من علمه شيئاً، لكمال شغله بربه؛ ولم أترك الحرمة، فيوماً من الأيام نظر إليَّ فقال:

من أين المرتحل؟ فأخبرته ببعض حالي، قال: بأي شيء جئت؟ قلت: لأقتبس من علمك.

قال: اتَّق الله، واستعن به، وتوكل عليه، فإنه وليٌّ حميد؛ وسكت.

فقلت: زدني، رحمك الله ! فإني رجل غريب، جئتك من بلد بعيد،

لأسألك عن أشياء اختلجت في ضميري .

فقال : أمتعلم ، أم عالم ، أم مناظر ؟ .

فقلت : بل متعلم محتاج .

قال : قف في درجة المتعلمين ، واحفظ الأدب ، ولا تتعد ! فإنك إن تعدَّيْتَ فسد عليك النفع .

العقلاء من العلماء ، والعارفون من الأصفياء ، الذين سلكوا سبيل الصدق ، وقطعوا أودية الحزن ، ذهبوا بخير الدارين .

فقلت : رحمك الله ! متى يبلغ العبد إلى ما وصفت ؟ .

قال : إذا كان خارجاً من الأسباب .

قلت : ومتى يكون العبد كذلك ؟ .

قال : إذا خرج من الحول والقوة .

قلت : وما نهاية العارف ؟ .

قال : أن يصير بالكلية كالمعدوم عند وجوده .

قلت : ومتى يبلغ إلى مرتبة الصدِّيقين ؟ قال : إذا عرف نفسه .

قلت : متى يعرف نفسه ؟ .

قال : إذا صار مستغرقاً في أبحر المِنَّة ، وخرج من أودية الأنانية ، وقام على قدم ياسينية .

قلت : ومتى يبلغ العبد إلى ما وصفته ؟ قال : إذا جلس على مركب الفردانية .

قلت : وما مركب الفردانية ؟ قال : القيام بصدق العبودية .

قلت : وما صدق العبودية ؟ .

قال: العمل لله تعالى، والرضا بالقضاء، قلت: أوصني.

قال: أوصيك بالله، قلت: زدني. قال: حسبك!.

* قال عبد الواحد بن زيد رحمه الله: رأيت رجلاً في بعض أسفاري، وعليه ثوب من الشعر، فسلمت عليه، قلت: رحمك الله! أسألك مسألة؟

قال: أوجز!، فإن الأيام تمضي، والأنفاس تُعد وتحصى، والربُّ مطَّلع يسمع ويرى.

قلت: ما رأس التقوى؟ قال: الصبر مع الله تعالى.

قلت: ما رأس الصبر؟ قال: التوكل على الله.

قلت: وما رأس التوكل؟ قال: الانقطاع إلى الله.

قلت: وما رأس الانقطاع؟ قال: الانفراد لله.

قلت: وما رأس الانفراد؟ قال: التجريد عما دون الله.

قلت: ما ألذ الأشياء؟ قال: الأنس بذكر الله.

قلت: ما أطيب الأشياء؟ قال: العيش مع الله.

قلت: ما أقرب الأشياء؟ قال: اللحوق بالله.

قلت: أي شيء أوجع للقلب؟ قال: فراق الله.

قلت: ما همة العارف؟ قال: لقاء الله.

قلت: ما علامة المحب؟ قال: حبُّ ذكر الله.

قلت: ما الأنس بالله؟ قال: استقامة السر مع الله.

قلت: ما رأس التفويض؟ قال: التسليم لأمر الله.

قلت: وما رأس التسليم؟ قال: ذكر السؤال عند الله.

قلت : ما أعظم السرور ؟ قال : حسن الظن بالله .

قلت : مَنْ أعظم الناس ؟ قال : من استغنى بالله .

قلت : من أقوى النَّاس ؟ قال : من استقوى بالله .

قلت : من المغبون ؟ قال : من رضي بغير الله .

قلت : ما المروءة ؟ قال : ترك النزول بدون الله .

قلت : متى يكون العبد مبعداً من الله ؟ قال : إذا صار محجوباً عن الله .

قلت : متى يكون محجوباً عن الله ؟ قال : إذا كان في قلبه هَمٌّ غير الله .

قلت : ومن الغُمْرُ (أى الغافل) ؟ قال : من أنفق عمره في غير طاعة الله .

قلت : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : ترك كل شيء يشغل عن الله .

قلت : مَنِ الْمُقْبِلُ ؟ قال : من أقبل على الله .

قلت : ومن المُدْبر ؟ قال : من أدبر عن الله .

قلت : ما القلب السليم ؟ قال : الذي لم يكن فيه سوى الله .

قلت : أخبرني من أين تأكل ؟ قال : من خزائن الله .

قلت : ما تشتهي ؟ قال : ما يقضي الله .

قلت : أوصني ! قال : اعمل بطاعة الله ، وارض بقضاء الله ، واستأنس بذكر الله ، تكن من أصفياء الله .

لا يعصى الله من يعرفه :

* قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : كنت في بعض سياحتي ، فإذا بشيخ ، وفي وجهه سيما العارفين .

قلت : رحمك الله ! ما الطـريق إليه؟ قـال : لو عرفتَـه لوجـدت الطريق إليه .

قلت : أَوَ هل يعبده من لا يعرفه ؟! قال : أوَ هل يعصيه من يعرفه ؟! .

قلت : أليس آدم عصاه مع كمال معرفته ؟! قال : ﴿**فنسي ولم نجد له عزماً**﴾ ثم قال : يا هذا! دع الاختلاف والخلاف .

قلت : أليس في اختلاف العلماء رحمة ؟ قال : نعم ، إلاَّ في تجريد التوحيد .

قلت : وما تجريد التوحيد ؟ قال : فقدان رؤية ما سواه لوحدانيته .

قلت : وهل يكون العارف مسروراً؟ قال : وهل يكون العارف محزوناً؟ .

قلت : أليس من عرف الله طال همُّه ؟ قال : بل من عرف الله زال همُّه .

قلت : وهل تُغيِّر الدنيا قلوب العارفين ؟ قال : وهل تغير العقبى قلوبهم؟ .

قلت : أليس من عرف الله ، صار مستوحشاً من الخلق ؟ قال : معاذ الله أن يكون العارف مستوحشاً ، ولكن يكون مهاجراً ومتجرداً .

قلت : وهل عرفه أحد ؟ قال : وهل جهله أحد ؟ .

قلت : وهل يتأسف العارف على شيء غير الله ؟ قال : أوَ هل يعرف غير الله ، [حتى] يتأسف عليه؟ .

قلت : وهل يشتاق العارف إلى ربه ؟ قال : أوَ هل يكون غائباً عن العارف حتى يشتاق إليه ؟ .

قلت : وما اسم الله الأعظم ؟ قال : أن تقول : الله .

قلت : كثيراً ما قلت ، ولم يداخلني الهيبة ! قال : لأنك تقول من حيث

أنتَ ، لا من حيث هو ! .

قلت : عظني : قال : حسبك من المواعظ ، علمك بأنه يراك . فقمت من عنده .

وقلت : ما تأمر ؟ قال : كفى باطلاعه عليك في جميع أحوالك ! .

لذة العيش مع الله :

* سُئل يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ ما علامة القلب الصحيح ؟ .

قال : الذي هو من هموم الدنيا مستريح .

قيل : وما القوت ؟ قال : ذكر حيٍّ لا يموت .

قيل : وما صدق الإرادة ؟ قال : ترك ما عليه العادة .

قيل : وما الشوق ؟ قال : ملا حظة ما فوق .

قيل : متى يتم أمر العبد ؟ قال : إذا سكن مع الله بِلاَ هَمٍّ .

قيل : وما علامة المريد ؟ قال : أن لا يشتغل بالعبيد .

قيل : وما رِأس الهدى ؟ قال : صدق التقى .

قيل : وما اللذة ؟ قال : الموافقــة .

قيل : ومَنِ الغريب ؟ قال : الذي ليس له من حبه نصيب .

قيل : ومتى يبلغ العبد إلى ولايـة مولاه ؟ قال : إذا عـزل عن قلبه كل من سواه .

قيل : وما الراحة الكبرى ؟ قال : التسليم للمولى .

قيل : وما أفضل الأعمال؟ قال : ذكر الله على كل حال .

قيل : وما الفاقة العظمى؟ قال : دوام الأنس بالمولى .

قيل : وما حجاب القلوب ؟ .
قال : الاستكفاء بالمربوب .
قيل : وما العيش الجميل ؟ قال : العيش مع الجليل .
قيل : وما حقيقة الوفاء ؟ قال : الصدق والصفاء .
قيل : ومَنِ المحبُّون ؟ قال : العارفون .
قيل : ومَنِ العزيز ؟ قال : من تعزَّز بالعزيز .
قيل : ومَنِ الشريف ؟ قال : من انس باللطيف .
قيل : ومن الغُمْرُ ؟ قال : من ضيع العمر .
قيل : ما الدنيا ؟ قال : ما شغلك عن المولى ! .

* نعم معدن المعرفة القلب، لقوله تعالى : ﴿ فإنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ ٱلْقُلُوبِ ﴾ .

ومعدن المشاهدة الفؤاد، لقوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ .

ومعدن النور الصدر، لقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

وما ازداد حبّاً لله تعالى، إلاّ ازداد حباً لرسوله ﷺ، ولأوليائه .

****

الحديث الثالث عشر:

المرء مع من أحب

أخبرنا الشيخ الجليل، الوليُّ الأصيل، فرد الوقت: أبو المكارم، الباز الأشهب خالي وسيدي منصور، الرباني، الأنصاري، البطايحي، رضي الله عنه، برواقه في نهر دقلى، قال: حدثنا أبو طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد الباقلاني، قال: أنبأنا أبو عمرو عثمان بن محمد العلاف، قال: أنبأنا أبو بكر أحمد بن سليمان ــ إملاء ــ قال: قرأ عليَّ يحيىٰ بن جعفر بن أبي طالب، وأنا أسمع، قال: حدثنا محمد بن عبيد بن الأعمش، عن شقيق، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! الرَّجلُ يحبُّ القومَ ولا يلحقُ بهمْ. قالَ: «**المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**».

هذا الحديث الشريف، ملزم بمحبة العارفين، مبشر بالإلحاق بهم، إذا صحت المحبة؛ وهل الدينُ إلاَّ الحبُّ في الله، والبغض في الله؟ وإنَّ من سر الحب الخالص: أن يُرفع العارفُ إلى مقام السر والنجوى، في المحاضرة عند سواه.

أي بني! اعلم أن العارف بأسرار المريدين، المطلع على همم العارفين، كلَّف العبادَ وفاء صدق العبودية، ثم بيَّن لهم تحقيق شرائطها، كيلا يتجاوزوا حدَّ العبودية، إلى حد الربوبية؛ وحدَّ الفقر، إلى حدِّ الغنىٰ، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَىٰ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلحَمِيدُ** ﴾.

وجعل لكل شيء سبباً، فجعل سبب المخرج من عبودية المخلوقين: القيام بصدق العبودية، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً** ﴾ من

عبودية من سواه، ﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ المؤانسة، والمحبة، والشوق إليه ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.

ومعنى آخر: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ بحفظ السر عن آفات الالتفات إلى ما سواه: ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ من حجب الإبعاد ﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ المشاهدة والوصلة ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.

وكذلك جعل سببَ معرفة العبد ربه: معرفة العبد نفسه، بشاهد: « مَنْ عرف نفسه » أي: بالعبودية « عرف ربه » بالربوبية؛ ومن عرف نفسه بالفناء، عرف ربه بالبقاء؛ ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ، عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه بالافتقار، قام للَّهِ على قدم الاضطرار؛ ومن عرف نفسه لمولاه، قَلَّتْ حوائجه إلى من سواه.

روي أن النبي ﷺ قال: « من عرف الله، قام بحقه ».

أي: من عرف الله بالهداية، سلَّمَ نفسَه إليه؛ ومن عرف الله بالربوبية، قام له بأشراط العبودية؛ ومن عرف الله بالجزاء، أوقع نفسه في العناء؛ ومن عرف الله بالكفاية، اكتفى به عن كل ما سواه.

روي أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه السلام: «ألا من عرفني أرادني وطلبني، ومن طلبني وجدني، ومن وجدني لم يختر عليَّ حبيباً سواي».

* قال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله: من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه، ومن أطاعه قطع عن قلبه كل ما دونه.

ومن حُرِمَ المعرفة، حرم حلاوة الطاعة، ومن حرم حلاوة الطاعة، حرم المؤانسة في الخلوة، فلا يجد في المعاملة رؤية المنَّة، ولا يعرف قدر الله على الحقيقة، ويُغلب في الأحوال، فيسقط عن استقامة السر مع الحق.

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله:

من عرف الله، وفي قلبه هم سوى الله، لم يسجد سجدة خالصة لله.

ومن عرف الله، ولم يستغن بالله، فلا أغناه الله.

ومن قال: الله، وفي قلبه شيء سوى الله، فلم يقل: الله.

نعم. من خاف الله في كل شيء، آمنه الله من كل شيء.

ومن أنس بمولاه، استوحش عن كل ما سواه.

ومن اعتز بذي العز، عَزَّ.

ومن اعتز بغيره، فلا فخر له ولا عِزَّ.

ومن انقطع عن الأسباب الشاغلة عن اللّه، اتَّصل بالأسباب الشاغلة باللّه.

ومن ترك عروة العلاقات، صار مستأنسا به في جميع الأوقات.

ومن ذاق حلاوة ذكر مولاه، يجد الملالة عن ذكر ما سواه.

ومن كتم أسرار القلوب، ظهرت له أسرار الغيوب.

ومن جعل الهموم همّاً واحداً، كفاه الله الهموم.

ومن طلب رضاء مولاه، لا يبالي بِسُخْطِ ما سواه.

ومن اكتفى بمقامه، حُجب عن أمامه.

ومن كان لله قريباً، كان مع غيره غريباً.

ومن أراد عزَّ الدارين، فلينقطع إلى من له ملك الدارين.

ومن ترك حسن الرعاية، زلّ عن سبيل الهداية.

ومن أراد أن يشرب من محبة الله شربة، فليشرب من بغض غير الله جرعة.

ومن استأنس بكل شيء، استوحش من كل شيء .

ومن سكن قلبه إلى شيء، فليس من الله في شيء .

قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَصبَحَ وَهَمُّهُ غَيْرُ ٱللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ» .

من أحبنا أحببناه :

قال الله تعالى في بعض الكتب: من أرادنا أردناه، ومن أراد منا أعطيناه، ومن أحبنا أحببناه، ومن اكتفى بنا عمَّا لنا، كنَّا له وما لنا، ألا من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني .

قيل: أَلا منْ طلبني بالتوبة، وجدني بالمغفرة؛ ومن طلبني بشكر النعمة، وجدني بالزيادة؛ ومن طلبني بالدعاء، وجدني بالإجابة؛ ومن طلبني بالتوكل، وجدني بالكفاية؛ ومن طلبني بالقربة، وجدني بالمؤانسة؛ ومن طلبني بالمحبة، وجدني بالوصلة؛ ومن طلبني بالاشتياق، وجدني باللقاء والرؤية .

وقال بعضهم: من كان لله، كان الله له؛ أي: من كان في أمر الله، كان الله في أمره؛ ومن كان في ذكر الله، كان الله في ذكره؛ ومن كان في حبِّ الله، كان الله في حبِّه؛ ومن كان في مرضاة الله، يكن الله في مرضاته: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ﴾ .

قال ﷺ: « مَنْ أَحَبَّ لِقَاء الله، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ؛ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » . .

من حكم العارفين :

ومن حكم العارفين قول قائلهم: من ابتلي بمعاملة العبيد، فليلبس لهم لباساً من حديد .

ومن رضي من الدنيا باليسير، فقد استراح من شغل كثير.

ومن أصبح على الدنيا حريصاً ، أصبح من الله بعيداً .

ومن هتك ستر التُّقىٰ ، لم تستره السمٰوات العلى .

ومن نظر في عواقب الأمور، سلم من نوائب الدهور.

ومن لم يقنع بالقليل ، وقع في غمٍّ طويل .

ومن سلَّ سيف التقى ، ضرب به عنق الردى .

ومن كان مسروراً ، لم يزل مغروراً .

ومن لم يحفظ لسانه ، فسد عليه شأنه .

ومن لم يعرف موضع ضره ، لم يعرف موضع نفعه .

ومن أعرض عن صحبة الفجار، عوَّضه الله صحبة الأبرار.

ومن أخذ عزاً بغير حق ، أورثه الله ذُلاًّ بحق .

ومن ضيَّع أيام حرثه ، ندم أيام حصاده .

ومن توكل على غير الله ، يعذبه الله به .

ومن رضي بالله وكيلاً ، صار له لكل خير دليلاً ، ووجد إلى كل خير سبيلاً .

ومَنْ عرف حلاوة النجوى ، لا يجد مرارة البلوى :

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ .

من وصايا العارفين :

وقيل : ثلاث كلمات كان الأخيار من المتقدمين ، يوصي بعضهم بعضاً في كتبهم بهن :

١ ـ من عمل لآخرته ، كفاه الله أمر دنياه .

٢ ـ ومن أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته .

٣ ـ ومن أصلح ما بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس .

شعر :

إِذَا السِّرُّ وَالإِعْلَانُ فِي ٱلْمُؤْمِنِ اسْتَوَىٰ
رَأَىٰ الْعِزَّ في ٱلدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ ٱلثَّنَا
وَإِنْ خَالَفَ الإِعْلَانُ سِرّاً فَمَا لَهُ
عَلَىٰ فِعْلِهِ فَضْلٌ سِوَىٰ الْكَدِّ وَالْعَنَا

آخر :

من ٱعْتَزَّ بِالْمَوْلَىٰ فَذَاكَ جَلِيلُ
وَمَنْ رَامَ عِزّاً مِنْ سِوَاهُ ذَلِيلُ
فَلَوْ أَنَّ نَفْساً مَنْ بَرَاهَا مَلِيكُهَا
قَضَتْ وَطَراً فِي سَجْدَةٍ لَقَلِيلُ

****

الحديث الرابع عشـر :

إنما الأعمال بالنيـــــات

أخبرنا شيخنـا الشيخ : أبو الفضل علي ـ المقري القـرشي ـ الواسطي ، رحمـه الله تعالى رحمـة واسعة ، قـال : أنبأنا أبـو الحسن عبد الـرحمن بن محمد بن المظفـر الداودي ، قال : أنبأنـا أبو محمد عبـد الله بن أحمد بن حمويـه السرخسي ، قال : أنبأنـا أبو عبـد الله محمد بن يوسف الفـربري ، قال : أنبأنا أبـو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، قـال : حدثنا يحيى ابن مـزرعة ، قـال : حـدثنـا مالك ، عن يحيى بن سعيـد ، عن محمـد بن إبراهيم بن الحـارث ، عن علقمة بن وقاص ، عن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ :

« العَمَلُ بِـالنِّيَّةِ ، وَإِنَّمَا لِامْـرِيءٍ مَا نَـوَىٰ ، فَمَنْ كَانَـتْ هِجْرَتُهُ إِلَـىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » (١) .

ومن هذا الطريق روى هذا الحديث سيدنا عمر الفاروق الجليل ، رضي الله عنه ، بنصِّ : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنياتِ ، وَإِنَّمَا لكلِّ امْـرِيءٍ مَا نَوَىٰ ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُـولِهِ ، فَهِجْرَتُـهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِـهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُـهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ ٱمْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » .

قلوب العارفين ، إلى حضرة قدس رب العالمين :

(١) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وغيرهم .

خُـذْ طَـارِفَ السَّيْـرِ بِـلاَ عَـائقٍ ... لِلَّـــهِ لاْ تَقْصِـدْ سِــوَىٰ ٱللَّـــهِ
فَكُـلُّ مَـــا أَمَّلْتَـــهُ قَــائِمٌ ... بِهِجْـــرَةِ الْقَلْـبِ إِلَـىٰ ٱللَّـــهِ

أي بني ! أهل الحجاب، يتعجبون من كلام أولى الألباب، وربما ينتهي التعجب بهم إلى طرف من الإنكار، لقـوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ أي: تنكرون، كفعلهم .

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنـه قال: كانت تحت الجـدار الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾: لوح من ذهب، والذهب مكتوب فيـه: «بسمِ الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن أيقن بـالموت كيف يفرح؟! وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف يحزن ؟! وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟! وعجبت لمن أيقن بـزوال الـدنيا وتقلبهـا بأهلهـا، كيف يطمئن إليها؟! لا إِلَه إلاَّ اللَّهُ، محمدٌ رسول الله» .

عجبـــاً لمن يريد بالله بدلاً :

قال وَهْبٌ رحمه الله: بينما كنت أسير في أرض الروم، إذ سمعت صوتاً من شاهق الجبل يقول:

إِلَهي ! عجبت لمن عـرفك، كيف يتعـرض لسخطك بـرضاء غيـرك؟! إِلَهي! عجبت لمن عرفك، . كيف يـرجو غيرك؟! فـاتَّبعت الصوت، فإذا أنا بشيخ ساجد، يقول:

سبحانك، سبحانك، عجباً للخليقة! كيف يريدون بك بدلاً ؟! .

سبحانك، عجباً كيف يشتغلون بخدمة غيرك ؟! .

سبحانك، عجباً للخليقة كيف يشتاقون إلى غيرك ؟!

سبحـــانك، سبحـــانك، كيف يتلــذذون بغيــرك، وبشيء دونك؟!

فمضيتُ، وما أشغَلْتُه عمَّا رأيت.

قال أبو يزيد رحمه الله: عجبت لأهل الجنة، كيف يتلذذون بدونه؟! أم كيف يستأنسون بغيره؟! وعجبت ممن يسكن إلى حال، دون وليِّ الأحوال؟! والعجب لمن أقبل إلى الخلق، والحقُّ يقول: إليَّ، إليَّ.

قال أبو عبد الله بن مقاتل رحمه الله: عجبت لابن آدم، اختاره الله لنفسه، مع غناه عنه، وهو يعرض عنه، مع فقره إليه!.

وعجبت لمن يشغل نفسه بشيء، وهو يعلم أنه قد فُرغ منه!.

وعجبت ممن يأمر غيره بما لا يفعله، ويغضب على غيره بما يفعله.

وممن يكره أن يُعصىٰ وهو عاص!.

وممن يحب أن يطاع، وهو غير مطيع لربه!.

وممن يلوم غيره على الظن، ولا يذم نفسه على اليقين!!

قال حاتم الأصم رحمه الله:

عجبت ممن يستحي من الخلق، كيف لا يستحي من الخالق؟!.

ولمن يطلب رضاء المربوبين، كيف لا يطلب رضاء الرب؟!.

ولمن يحب أهل الطاعة، وهو مقبل على المعصية؟!.

ولمن يعرف جلال الله، كيف يُعرض عنه؟!.

ولمن يأكل رزق ربه، كيف يشكر غيره؟!.

ولمن يشتري المملوك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه وطيب كلامه؟!.

وقال خُنيس بن عبد الله رحمه الله تعالى: عجبت من رجل ليله قائم،

ونهاره صائم، ويجتنب المحارم، ولا تلقاه إلا باكياً حزيناً ! .

ورجل ، ليله نائم ،ونهاره لاعب، ويرتكب المحارم ، ولا تلقاه أبداً إلاَّ ضاحكاً مستبشراً ! .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله :

عجبتُ ممن يتذلل للعبيد، وهو يجد من سيده ما يريد ! .

وعجبت لمن كان قوته رغيفاً، يعصي ربّاً لطيفاً ! .

وعجبت لمن يخاف على موت نفسه، ولا يخاف على موت قلبه، ولمن يخاف على فوات دنياه، كيف لا يخاف على فوات دينه ؟! .

قال قائلهم : إلَهي !

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي ... أَفَنيْتَنِي بِكَ عَنِّي
أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ... ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى : إلَهي! ذِكْرُ الجنة موت، وذكر النار موت، فيا عجباً لنفس تحيا بين موتين ! أما الجنة فلا صبر عنها، وأما النار فلا صبر عليها .

وقيل : ذكر الوصال موت، وذكر الفراق موت، كيف يحيا قلب بين موتين؟ موت العارف عجيب، لأن العارف بين سرور المعرفة، وخوف الفرقة، فكيف الموت مع سرور المعرفة ؟ أم كيف الحياة مع خوف الفرقة؟! .

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُـــولُ ذَكَـــرْتُ رَبِّي وَهَلْ أَنْسَىٰ فَـــأَذْكُـــرُ مَـنْ نَسِيتُ

أَمُـــوتُ إِذَا ذَكَـــرْتُـكَ ثُمَّ أَحْيَـــا وَلَــوْلاَ مَـــاءُ وَصْلِكَ مَـــا حَيِيتُ

فَأَحْيَــا بِـالْمُنَىٰ وَأَمُـــوتُ شَـوْقــاً فكُمْ أَحْيَـــا عَلَيْـكَ وَكَمْ أَمُـــوتُ

شَــرِبْتُ الْحُبَّ كَـأْسَاً بَعْـدَ كَـأْسٍ فَمَـــا نَفِـدَ ٱلشَّــرَابُ وَمَـــا رَوِيتُ

يا عجبـــــــاً !

تَغَـــرَّبَ أَمْـرِي عِنْـــدَ كُلِّ غَـــرِيبِ فَصِـرْتُ عَجِيباً عِنْـــدَ كُلِّ عَجِيبِ

****

وصية محمدية

أخبرنا القاضى الإمام المقرى الشيخ : على أبو الفضل القرشى الواسطى ـ بداره بواسط ـ قال : أنبأنا أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى ، قال : أنبأنا أبو يعقوب ، قال : أنبأنا زاهد بن أحمد ، قال : أنبأنا محمد بن إبراهيم بن نيروز، قال : حدثنا المطلب بن شعيب ، بن عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا الهقل بن زياد ، عن بكر بن خنيس ، قال : حدثنى عاصم بن عبد الله النخعى ، عن أبى هارون العبدى ، قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى ، قال : مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ . إن رسول الله ﷺ قال لنا : «إِنَّ ٱلنَّاسَ لَكُمْ تبَعٌ ، وَإِنَّهُمْ سَيَأْتُونكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي ٱلدِّينِ ، فَإِذَا جَاءوكُمْ فَٱسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا » (١) .

هذا الحديث الشريف ، يجذب العارف إلى طلب حديث المصطفى ﷺ وسُنَّته ، ليكون محل نظره النبوى ، فى بحبوحة التوصية السارية فى عوالم الله تعالى ، وهل لباب المعرفة بالله إلا الأخذ بحديث رسول الله ﷺ ، والعملَ بسنته السنية ؟ وهذا القامع للنفس .

أى بنى ! اعلم أن معرفة النفس ، أحد أصول العبودية ، وقلَّ من يعرفها ، وعز وجود من يتمنى عرفانها ، وما خلق الله تعالى فى الدارين سجنًا أضيق على العارف ، ولا أوحش ولا أنتن من النفس .

فمن عرفها على التحقيق ، وخالف أمرها ، فكل أرض له ثغر وطرسوس .

---

(١) رواه ابن ماجه .

ومن غفل عن معرفتها ، فهو على خطر عظيم ، ولا يسلم من شرها ، فإن من لا يعرفها ، كيف يقوم بمخالفتها ؟ ! .

قال أحمد بن حرب رحمه الله تعالى : إنى لأشتهى أن أموت ولو ساعة ، حتى أعرف نفسى وأخالفها .

قال محمد بن الفضل رحمه الله تعالى : من عرف نفسه لا يتنفس نَفَسًا إلَّا بدوام جهدها ، وكثرة عبادتها ، ولا يغتر بصفاوة أوقاتها ، وحسن أحوالها ، ولطائف أنفاسها ، وصدق معاملتها ، لما علم من غوامض آفاتها ومكرها ، وسوء طبعها ، وكمال شرها .

وإنى تفكرت فى جميع عمرى ، ونظرت فى شأن نفسى ، فما رضيت فى عمرى عن نفسى طرفة عين .

قال الأنطاكى رحمه الله : من لم يعرف نفسه فهو مغرور.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : خالطت الناس سبعين سنة ، فما وجدت رجلاً إلَّا وهو راكب هواه ، حتى إنه إن أخطأ أحب أن يُخطىء الناس كلهم ، ولأن يُضرب ظهرى بالسياط أحب إلىَّ من أن يقال : أخطأ فلان المسلم .

وقال إبراهيم التميمى رحمه الله تعالى : ما عرضت قولى على عملى ، إلَّا وجدتُه مكذوبًا .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كثيرًا ما يقول : اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى .

قال ذو النون رحمه الله تعالى : من نظر بعين المعرفة إلى سلطان ربه ، فنى عنه سلطان نفسه ، ومن نظر إلى عظمة ربه ، صغرت عنده عظمة نفسه ، وقُهرت تحت جلال هيبته .

وقيل لمالك بن دينار، حين ماتت زوجته أم يحيى : لو تزوجت يا أبا يحيى ! .

قال : لو استطعت لطلقت نفسى ! ولو أن مناديًا ينادى بباب المسجد : ليخرج شَرُّكم رجلاً ، فوالله ما سبقنى أحد إلى الباب ، إلا رجل له فضل قوة فى السعى ! .

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى قلت : يا ربِّ ! كيف الوصول إليك ؟ .

قال : يا أبا يزيد إدع نفسك وتعال ! .

لقى حكيم حكيما فقال : يا أخى !إنى لأحبك فى الله .

فقال : يا أخى ! والله لو علمت منى ما أعلم من نفسى ، لبغضتنى الحالة .

وكان بكر بن عبد الله المزنى ، ومطرف بن عبد الله ، بالموقف (عرفات) فقال مطرف : اللهم لا تردَّهُمْ لأجلى ! .

وقال بكر : ما أشرف هذه المواضع وأرجاها ! لولا أنا فيهم ! اللهم لا تحبس المغفرة بشؤمى ولا تردهم لأجلى .

وقال موسى بن القاسم رحمه الله تعالى : وقع عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبتُ إلى محمد بن مقاتل ، فقلت : يا أبا عبد الله! أدع الله لنا ، فأنت إمامنا .

فقال : ليتنى لا أكون سبب هلاككم .

فقال موسى بن القاسم : رأيت النبى ﷺ تلك الليلة فى المنام ، فقال : إن الله تعالى دفع عنكم بدعاء ابن مقاتل .

وكان عطاء السُلمى رحمه الله تعالى يبكى كلما هبت ريح شديدة ، ويقول : هذه من أجلى ، يصيب بها الخلائق ، لو مات عطاء لاستراح الخلائق من بلائه ! .

وكثيرًا ما كان ينوح على نفسه ، ويقول : يا عطاء ! لعلك أول مسحوب إلى النار ، وأنت غافل ! .

وكان الفضيل رحمه الله تعالى واقفًا بعرفات ، فنظر إلى جميع الناس ، وقال : ياله من موقف ما أشرفه ، لولا أنا فيهم ! ثم بكى ، ورفع رأسه ، وأخذ

لحيتـه وقبض عليهـا ، وقال : يـا سـوأتاه علـى ما كـان من نفسى ؟ فإنهـا مغرورة ، وبالثناء مسرورة ، وإن من غايـة بلاء النفس ، أن لو مات نصفها ، لم يصلح النصف الآخر.

وحكى أن أبـا يزيـد البسطامى رحمـه الله تعالى قـال : نظرت فى حـال عبادتى فـرأيتها مختلطة ، ثم نظـرت إلى نفسى وتركيبها ، فإذا هى منسـوبة إلى كل بلاء ، ورأيتهـا لا تخلو من الشـرك ، وعلمت أن الله تعالى لا يقبل الشرك .

فقلت لهـا : يـا مأوى كل شـر ! إلى كم يـدعوك الله إلى تـوحيـده ، ولا تنظرين إليـه ! فاشتد على قلبى غم هـذا الإشراك ، فعمدت وأعـددت لها كـانون الصيـاغـة ، ثم سعرت فيـه نـار الحق ، ووضعت فيـه كير الـدين ، ونصبت سَنْـدَانَ الوحـدانية ، وضـربتهـا بمطرقـة الأمر والنهى ، وطـال بِىَ العناء ، فلما نظرت إليها وجدتها مشركة ! .

فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إنهـا لا تنظف بالجفاء ، فلعلها تنظف بالرفق ، واللين ، والمداراة .

فرددتها إلى بستان ذكر المِنَّة ، ووضعت بين يديها رياحين رؤية اللطف والكرامات ، وتروَّحت بمراوح التحنـن والبر والإحسان ، وطال منى العناء ، فلما فتشتها وجدتها مشركة ! .

فقلت لها : يا مأوى كل شر وبلاء ! لا تصلحين بالجفاء ولا بالرفق ؟ ثم رددتها إلى قصار الأحـدية ، ليضربها على حجر الفردانيـة ، ويغسلَها بماء صفوة الصمـدانية ، فلم يـزل يضربهـا رجاء أن تنظف من الإشـراك ، وطال منى العناء ، فلما نظرت إليها فإذا هى مشركة ! .

فقلت : إنـا لله ، لعل صلاحهـا من وجه آخـر ، ثم أنـزلتها بمنـزلة امـرأة مستحاضـة ، فلم أزل أنظر إليهـا كالمتحير المضطـر ، وأنظر إلى بـلائها ، حتى أيست منهــا ، وعلمت أن لا يتأتى مــرادى منها ، فطلقتهــا ثـلاث

تطليقات، وتركتها، وصرت وحدى إلى ربى، وناديته: يا عزيزى ! أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك، بالعتق من عبودية ما سواك.

فلما علم الله تعالى صدق الدعاء منى، واليأس من نفسى، كان أول إجابة الدعاء، أن أنسانى نفسى بالكلية.

قال أبو سليمان رحمه الله تعالى: لو أن الخلق اجتمعوا على أن يضعونى، كإيضاعى عند نفسى، لم يقدروا على ذلك.

طوبى لعبد أطلعه الله على شر النفس، وعرف أصل خلقتها، وأنواع عوارضها، ومقتها ومألفِها وقهرها، وحقَّرها، واتهمها، ووضعها.

* * * * * *

الحديث السادس عشر:

الاقتداء بالصحابة

أخبرنا سيدنا فرد الوقت، أبو المكارم الباز الأشهب الشيخ: منصور، الربانى البطايحى الأنصارى رضى الله عنه، برواقه فى بلدة نهر دقْلى من واسط، قال: أنبأنا أبو عبد الله مالك بن أحمد، بن على الفرا ـ قراءة عليه ـ قال: أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد، بن موسى بن الصلت، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى، قال: حدثنا عبيد بن أسباط، عن أبيِّ بن سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعى، عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« اقْتَدُوا بِاللذَيْنِ منْ بَعْدِى من أصحابى: أبى بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَٱهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ، وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ٱبْنِ مَسْعودٍ »[1].

فقد أمر عليه الصلاة والسلام، بتصحيح القدوة بالشيخين العظيمين، سيدنا أبى بكر الصديق، وسيدنا عمر الفاروق، رضى الله عنهما، وبالتحقق بالاهتداء بهدى عمار رضى الله عنه، فإنه مات على حبِّ الصهر العظيم، الصنو الكريم، سيدنا على، رضى الله عنه.

وأكد لزوم التمسك بالعهد، كما كان محافظًا عليه ابن أم عبد، رضى الله عنه.

وفى هذا حكمة الجمع بين حب الصحب والآل، سر يدركه العارفون الموفَّقُون، وقد جعل صحة المتابعة له باتباع الشيخين رضى الله عنهما، وحقيقة الاهتداء بهديه بموالاة الأمير رضى الله عنه، وجمع بين النكتتين بلزوم التمسك بالعهد.

ومتى اقتدى العبد اهتدى، ومتى اهتدى تمسك بعهد الله، وهناك وقد

---

(١) رواه الترمذى والحاكم.

عرف، وهل المعرفة بالله تعالى إلا هذا؟ فإن من اهتدى بهدى محمد ﷺ، واقتدى به، وتمسك بعهده، أقبل على الله، وأعرض عن غيره.

جاء فى الخبر، أن الله تعالى قال:

« يا دنيا ! ٱخدمى من خدمنى، واستخدمى من خدمك ».

وليس من معالى الهمة: الاشتغال بما فيه حظ النفس.

وفى نعت النبى ﷺ بعلو همته الشريفة: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.

ولا يصل العبد إلى الله تعالى، حتى يقطع مفاوز الدنيا وما فيها، من زهراتها ولذاتها، وراحاتها وشهواتها، ويجاوز أودية الخلق، وما منهم، من جميل معاشرتهم وثنائهم ومحمدتهم.

وإن الله تعالى خلق جميع ذلك، ابتلاء لكل من أراد أن يصير مجردًا، حتى إن التفت إلى شىء منها صار مفتضحًا فى دعواه، وغرق فى أودية الحسبان والخسران، فكم مستدرج بالنعم، محجوب عن الخالق، غافل عن الصدق، جاهل بعرفان النفس، يصبح ويمسى على الحسبان، فيبدو له من ذى العرش ما لم يكن يحتسب.

قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾.

وإن من معالى الهمة، ما قيل لأبى عبد الله: لو أعطاك الله تعالى الدنيا بجميع ما فيها، ماذا تفعل بها ؟.

فقال: لو أمكننى أن أجعلها لقمة، وأضعها فى فم كافر لفعلت !.

قيل: ولم ؟ قال: لأن الله تعالى يبغض الكافر والدنيا جميعًا، فأفعل ذلك، ليقع البغيض إلى البغيض.

ثم حكى من صدق ما ادَّعاه، أن سلطان هراة (اسم مدينة) بعث إليه سبعة أوقار من الحنطة، وكان الشيخ يومئذ بهراة مع أصحابه، فأطعم الخادم منها أولياءه.

فقال له أبو عبد الله : أطعم الباقى فقراء العامة ، فقال : لا يمكن ، الأبواب مغلقة .

فقال : اذهب به إلى المجوس الذين هم فى جوارنا ! .

قال الخادم : فخشيت عقوبة الله تعالى فى ترك أمره ، فأعطيته المجوس ، فجاءوا بكرة إليه وقالوا : ما الحكمة فى إعطائك إيَّانا ونحن مخالفوك ؟ ! .

فقال : الدنيا عدوة الله ، والكافر عدو الله ، ولا يقرب الحبيب من الحبيب ، حتى يبعد من عدوه .

قال : فأسلموا جميعًا على يديه .

وحكى أن بعض المريدين كان يمشى فى البادية ، فحدثته نفسه ببعض حاجتها ، فإذا هو على شط بئر ، فرمى رَكوته فى البئر ليستقى الماء ، فخرجت له الرّكوة مملوءة من الذهب ! فرمى بها فى البئر ، وقال : يا عزيزى ! لا أريد غيرك .

قال عمار القرشى رحمه الله تعالى : كنت فى البادية ، فأردت التلبية وكنتُ حاجّاً ، فأخذت منديل شيخ لى ، فقددته نصفين ، واتَّزرت بنصفه ، وارتديت بالآخر ، فلم تزل نفسى تنازعنى ببعض الحاجة ، فإذا البادية كلها فضة ، فمضيت وقلت : إلَهى إنى أعوذ بك من كل إرادة سواك .

قال عيسى عليه الصلاة والسلام :

« طوبى لرجل ذكر الله ، ولم يذكر إلاَّ الله ، وطوبى لرجل خشى الله ، ولم يخش إلا الله ، وطوبى لعبد سأل الله ، ولم يسأل إلا الله » .

وحكى أن الإمام ابن الإمام ، سيدنا زين العابدين ، على بن الحسين ، رضى الله عنهما قال : كنت عند أبى عبد الله الحسين عليه السلام ، أقرأ فى بعض الكتب ، وكان فى يده سكين ، فرأيت حرفاً خطأ ، فقلت : ناولنى

السكين لأصلح هذا الحرف، فناولنى، فلما قضيت الحاجة رددته عليه، فقال لى: يا علىّ ! لا تعد إلى هذه مرة أخرى، فتقع إلى ذُلِّ السؤال، وخساسة الهِمَّة ! .

وروى أن النبى ﷺ قال ذات يوم لثوبان رضى الله عنه: « يَا ثَوْبَان ! لا تَسْأَل النَّاس » فكان ثوبان ربما يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد ناولنى إياه، حتى ينزل ويرفعه.

وسأل رجل من سفيان ــ رحمه الله ـ كِسرةً، فأعطاه دينارًا ! فقيل له فى ذلك، فقال: إن كان لا يعرف هو قَدْرَ نفسه، فلا أدع كرم نفسى، وإن كان هذا ترك الهمة، فأنا لا أدع الجود.

همم العارفين

همم العارفين متصلة بمحبة الرحمن، وقلوبهم ناظرة إلى مواضع العز من العزيز، لا راحة لهم فى دار الدنيا، دون الخروج منها.

وكان كثيراً ما يُرى حبيب العجمى رضى الله عنه، يوم التروية بالبصرة، ويوم عرفة بعرفات، فقيل له فى ذلك، فقال: هو أقل ما أطار إليه الهمة أهل الهمة.

ودخل على ـ كرم الله وجهه ـ مسجد رسول الله ﷺ.

فرأى أعرابياً فى المسجد يقول: إلَهى ! أريد منك شويهة.

ورأى أبا بكر الصديق فى زاوية أخرى يقول: إلَهى ! أريدك .

فشتان ما بين الهمتين، فكل يطير بهمته، فإذا بلغ طيرانه إلى غاية همته، وقف فلم يجاوزها.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾، أى: على نيته وهمته.

وقيل لأبى يزيد رحمه الله تعالى: سمعنا أنك تمر على الماء، وتطير فى الهواء ! .

فقال: المؤمن أعز على الله من السمٰوات السبع، فأى عجب أن يبلغ مقام طير أو حوت؟.

قرىء بين يدى ابن المبارك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾.

فقال: ليس أنه يسبق بدنٌ بدناً، ولا عملٌ يسبق عملاً، ولكن همةٌ تسبق همةً، فى جميع الخيرات والإرادات.

قال بعض العارفين: مساكين أهل الغفلة! يشتغلون بكثرة الأعمال، ويعظمونها ويفتخرون بها، ولو أن أهل المعرفة عملوا أعمال أهل السمٰوات والأرض، من الأزل إلى الأبد، كان ذلك أصغر وأحقر فى أعينهم، من خردلة فى السماء والأرض.

قال النبى ﷺ: « لا تستكثروا طاعتكم، ولا تستقلوا ذنوبكم ».

وروى أن موسى عليه الصلاة والسلام، كان يمر على شاطىء البحر، فقال: إلٰهى! قد اصطكتْ ركبتاى، وانحنى ظهرى، حبيبى! فما أنت صانع بى؟.

فأمر الله تعالى ضفدعاً أن يجيبه.

فقال: يا ابن عمران! أتمنُّ على ربك بعبادتك إياه؟! وقد اصطفاك وكلَّمك، وقرَّبك وناجاك، فوالذى خلقنى ويرانى، إنى على صخرة منذ ثلاثمائة وستين سنة، أُسبِّحه ليلاً ونهاراً، لا أفتر منها لحظة، ومنذ ثلاثة أيام لم آكل، وكل ساعة ترتعد فرائصى من هيبته.

وقال أبو سعيد أبو الخير رحمه الله تعالى: كنت فى البادية فنالنى جوع شديد، فطالبتنى نفسى أن أسأل الله طعاماً، فقلت: ليس هذا من دأب المتوكلين، فطالبتنى أن أسأله اصطباراً، فلما هممت به ثانيًا، سمعت هاتفاً يقول:

أَيَجْهَلُ أَنَّنَا مِنْهُ قَرِيبٌ ... وَأَنَّا لا نُضَيِّعُ مَنْ أَتَانَا
يُرِيدُ أَبُو سَعِيد سُؤَالَ صَبْرٍ ... كَأَنَّا لا نَرَاهُ وَلا يَرَانَا

* * *

الحديث السابع عشر:

أصحاب الجنـــــــة

أخبرنـا شيخنا القاضى العـدل، الثقة المقرى، الإمـام الشيخ: على أبو الفضل القرشى الـواسطى رضى الله عنه، قال: أنبأنا أبو طـالـب محمد بن على بن الفتح العشـارى، قال: أنبأنـا أبو طـاهر محمـد بن عبد الـرحمن المخلص، قال: أنبأنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، قال: أنبأنا مـالك بن الخليل أبـو غسان، قـال: أنبأنـا ابن عـدى، عن أشعث، عن الحسن، عن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال: « **يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ** » قالوا: من هم يـا رسول الله ؟! قال: « **هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** »[1].

جعل ﷺ عدم التطيُّـر المرتبـة الثانية، بعـد ترك الاسترقـاء، وهذه مـرتبة الخلَّص، من أهل الانمحاق عنهم وعن كونهم فى مراد الله تعالى.

رحمهم الله، مـا أقلهم فى كل عهد! فـإن رتبتهم التحقق بالتـوكل على الله تعالى، توكلاً تنطوى فيه الأسباب والمرادات، وأولئك هم العارفون بالله حقاً، رضى الله عنهم.

يا هذا! لو أن العالم فريقان:

١ ـ فريق يروِّحنى بمراوح من ندٍّ.

٢ ـ وفريق يقـرض جسمى بمقارض من نـار، لا زاد هؤلاء عنـدى، ولا نقص هؤلاء.

أى بنى! اعلم أن من عرف الله حق معرفتـه، تلاشت همته تحت سرور وحدانيته، ولا شىء من العرش إلى الثرى، أعظم من سرور العارف بربه.

---

(١) رواه الإمام مسلم.

والجنة بكل ما فيها في جنب سروره بربه، أصغر من خردلة، لما علم أنه أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم.

فمن وجده فأي شيء لا يجد؟ وبأي شيء يشتغل بعده ؟ .

وهل رؤية غيره إلا من خساسة النفس، ودناءة الهمة، وقلة المعرفة به؟ .

وهل يكون لباس أجمل من لباس الإسلام ؟ أو تاج أجل من تاج المعرفة، أو بساط أشرف من بساط الطاعة ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ .

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى فى بعض مناجاته:

إلَهى! إنك تعلم أن الجنة وما فيها، لا تزن عندى جناح بعوضة، بعدما وهبت لى معرفتك، وآنستنى بك، وفرغتنى للتفكر فى عظمتك، ووعدتنى النظر إلى وجهك.

نعم. إن أدنى منازل العارف، أن الله تعالى لو أدخله النار، وأحاط به العذاب، لم يزدد قلبه إلاَّ حبّاً، وأنساً به، وشوقاً إليه.

قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: لو خُيِّرْتُ بين الجنة وركعتين، تخيرت الركعتين، لأن فى الركعتين رضاء الله تعالى، والقرب منه، وفى الجنة هوى النفس، ومحبة الناس.

قيل: لما أُلقَى الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى النار و ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُم ﴾ .

قال: حسبى ربى ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

قال تعالى: ﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلاَماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

[إســـــــلام الأمر لله]

وروى أن الله تعالى أوحى إليه : يا إبراهيم ! أنت خليلى ، وأنا خليلك ، فـلا تشغل قلبك بـدونى ، فتنقطـع الخُلَّـةُ بينك وبينى ، لأن الصـادق فى دعـوى خُلتى لـو أُحـرق بالنـار، لـم يتحـول قلبـه عنى إلى غيـرى إجـلالاً لحرمتى .

وذكر الله تعالى ذلك فى كتابه بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ .

فعرف صدقه فى التسليم ، حتى ألقى فى النار.

قال أبو عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ فى مناجاته :

إلَهى ! لا تدخلنى فى النار، فإنها تصير بردًا علىَّ من حبى لك .

قال أبو أيـوب السختيانى رحمه الله تعالى : إنمـا يخاف النار، من نسى مولاه ، فيقـال لهـم : ﴿ فَـذُوقُوا بِمَـا نَسِيتُمْ لِقَـاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ مع ثـواب أعماله .

قال أبو حفص رحمه الله تعالى : إنى لأخاف على معرفة قوم ، يكون على جبـاههم مكتوبًـا : عتقـاء الله بعـد إخراجهم منهـا ، يسألـون الله رفع تلك العلامة عنهم ، ولو كنتُ أنا ، لسألته أن يكتب ذلك على جميع أعضائى ، ويكفينى فخراً : أنى من عتقائه ! .

وأنا أقول : إنمـا الحاصل للمريد فى الجنة من الجنة هـو الربُّ تعالى ، وقربه ، ونظره ، واستماع كلامه .

أما ترى امرأة فرعون إذ قالت : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ كما يقال : الجار، ثم الدار.

قـال إبراهيم بن أدهـم رحمه الله تعـالى : إنى لأستحيى أن يكـون غايـة

همتى مخلوقاً، وقد قال الله تعالى لبعض أنبيائه : « **من أرادنا، لم يُرِدْ سوانا** » .

قال بعض المشايخ : رأيت شابّا فى المسجد الحرام، وقد أثَّر فيه الضر والجوع، فأدركتنى الرحمة عليه، وكان معى مائة دينار فى صُرَّةٍ، فدنوت منه، وقلت : يا حبيبى ! اصرف هذا فى بعض حوائجك، فلم يلتفت إلىَّ، فألححت عليه .

فقال : يا شيخ ! هذه حالة لا أبيعها بالجنة وما فيها، وهى دار الجلال، ومعدن القرار والبقاء، فكيف أبيعها بثمن بخس ؟! .

قال أبو موسى الدبيلى - خادم أبى يزيد - رحمهما الله تعالى : سمعت شيخًا ببسطام يقول : رأيت فى منامى، كأن الله تعالى يقول :

كلكم تطلبون منى، غير أبى يزيد، فإنه يطلبنى ويريدنى، وأنا أريده .

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : اتخذ الله جليساً وأنيساً، والزَمْ خدمة مولاك، تأتك الدنيا وهى راغمة، وتطلبك الآخرة وهى عاشقة .

وقال : يا طالب الدنيا ! دع الدنيا تطلبك .

ويا طالب الآخرة ! أو لم يكف بربك أنه على كل شىء قدير ؟ .

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى : كنت بالموقف، فهممت أن أسأل الله شيئاً، فهتف بى هاتف : بعد الله، تسأل غير الله .

وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد، فاضرب بالدنيا وجه عشاقها، وبالآخرة وجه طلابها، واستأنس برب العالمين، والسلام .

قال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى : لا تستكثر الجنة للمؤمن، فإنه قد وافى الله تعالى، بما هو أكثر قدراً من الجنة، وهو المعرفة .

وصلَّى رجل من العارفين على جنازة، فكبر خمساً، فقيل له فى ذلك ! فقال : كبرتُ أربعاً على الميت، وواحدة على الدارين .

وحكى أنه قرىء بين يدى أبى يزيد : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ قال : فأين من يريد المولى ؟ .

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، لأبى بكر الصديق ، رضى الله عنهما : يا خليفة رسول الله ﷺ! بماذا بلغت هذه المنزلة حتى سبقتنا ؟ فقال : بخمسة أشياء :

أولها : وجدتُ الناس صنفين ، طالب دنيا ، وطالب عقبى ، فكنت أنا طالب المولى .

والثانى : منذ دخلت فى الإسلام ، ما شبعت من طعام الدنيا .

والثالث : ما رويتُ من شراب الدنيا .

والرابع : إذا استقبلنى عملان ، عمل للدنيا ، والآخر للعقبى ، اخترت عمل الآخرة على عمل الدنيا .

والخامس : صحبت النبى ﷺ ، فأحسنتُ صحبته .

فقال له علىٌّ : هنيئاً لك يا أبا بكر ! .

* * *

الحديث الثامن عشر:

التربيـــــــــة الإلهية

أخبـرنا ابن العم، الـولى الصالـح، السيد سيف الـدين عثمان، قـال: حدثنى أبوك السيد على بن يحيى الرفاعى - صاحب المشهد المنوَّر ببغداد - قال: حـدثنى ابن عمى السيد حسن بن عسلـة، قال: حـدثنى النقيب الجليل السيـد يحيى بن ثابت، قـال: حدثنى أبى السيـد ثابت، عن أبيـه السيـد على الحـازم أبى الفـوارس، عن أبيـه السيـد أحمـد بن على أبى الفضائل، عن أبيـه السيد رفاعة الحسن المكـى - نزيل إشبيلية - عن أبيه السيد أبى القـاسم محمد البغـدادى - نزيل مكـة - عن أبيـه السيد الحسن القاسم أبى مـوسى الرئيس، عن أبيـه السيد الحسين عبد الـرحمن الرضى المحدث القطيعى، عن أبيـه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيـد موسى، عن أبيه الأميـر الكبير السيد إبـراهيم المرتضى، عن أخيـه الإمام الأعظم، قبلة أهل البـاطن، على الرضا - صاحب طـوس - عن أبيه الإمـام الشهيد مـوسى الكاظم، عن أبيـه الإمام السعيـد جعفر الصـادق، عن أبيه الإمـام محمد الباقـر، عن أبيه الإمام زين العابدين على السَّجَّـاد، عن أبيه الإمام المظلـوم الشهيـد السعيد، الحسين - صـاحب كـربـلاء - عن أبيـه أميـر المؤمنين، يعسوب نحل الموحدين، الإمام على، كرم الله وجهه، عن ابن عمه، سيد المخلوقين، حبيب رب العالمين، نبينـا ورسولنا محمد ﷺ أنه قال:

« أَدَّبَنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى ».

هذا الحديث الشريف ملزم بـالتحقق بآدابه ﷺ فإنَّ من زل عنها هوى،

ومن فارقها ضل وغوى، وبها تعرج همم المقربين، وتزهر أسرار العارفين، ولا وجه يلتحق به العارف بربه إلا طريق الأدب المحمدى، وسُلَّمُ كلِّ هذا: الذكر المتواصل.

أي بنى ! اذكر الله تعالى، واعلم أن الله تعالى أعلى درجة الذكر، وعظم رتبته، ورفع شأنه، وشرفه وفضله، ثم قسمه على اللسان، والأركان، والجَنان، فينبغى أن يكون الذاكر على حذر أن يلتفت إلى الذكر، ويكون شريف الهمة والإرادة، لطيف الفطنة فى الإشارة، صحيح النية والإرادة، لا يريد بذكره غيره، ولا يلتمس منه فراغه عنه إلى ما دونه، لأن الوصول إلى الكل تحت الرضا به عن غيره، والحرمان من الكل تحت الاشتغال بغيره.

[الإحســـان]:

ويجب على الذاكر أن يذكره على غاية من التعظيم والحرمة، لا على العادة والغفلة، فيصير بذلك محجوباً عن المذكور، عقوبة لترك التعظيم والحرمة، لأن حفظ الحرمة فى الذكر، خير من الذكر.

وما من عبد ذكره على التحقيق إلاَّ نَسِيَ فى جنب ذكره ما سواه، وكان الله له عوضاً من كل شىء، وربما يريد العارف أن يذكره، فيهيج فى سره أمواج التعظيم والهيبة، فيكل لسانه، ويطير فؤاده من إجلال الو حدانية، ثم يبدو له شعاع الشوق والمحبة، من حجب القلب والألفة، فتنتهى همته إلى سرادقات الألوهية، وميادين الربوبية بإذن الله.

فحينئذ يكشف له عما ستر عن غيره، من عجائب غيبه، ولطائف صنعه، وكمال قدرته، وأنوار قدسه.

فعند ذلك يعرف العبد، أن الله تعالى يفعل ما يشاء، بمن يشاء، لمن يشاء، متى يشاء، كيف يشاء، بيده المَنُّ، والعطاء، والإرادة.

لا رادَّ لفضلـه، ولا مُعقِّبَ لحكمـه، فيُشغَل بـه، ويصير فـانيـاً تحت بقائه.

وهـذا معنى مـا روى فى بعض الأخبـار، أن الله تعـالى قـال فى بعض الكتب: من يـذكـرنى ولا ينسانى، حـركت قلبـه لمحبتى، حتى إذا تكلم تكلم لى وإذا سكتَ سكت لى.

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: الـذكر أكبر من الجنة، لأن الذكر نصيب الله، والجنة نصيب العبد، وفى الذكـر رضاء الله، وفى الجنة رضاء العبيد.

وعن على بن أبى طـالب رضى الله عنـه، قـال: « إن الله تعـالى يتجلى للذاكـرين عند الـذكر، وتلاوة القـرآن، ولا يرونـه، لأنه أعـز من أن يرى، وأظهر من أن يخفى، فتفـردوا بالله سبحانه، واستـأنسوا بذكره، ومـا نزلت بأحد نازلة إلاَّ وفى كتاب الله لها دليل، من الهدى والبيان ».

[الأُنــــــــس بالله]:

قال أبو عبـد الله النساج رحمه الله تعالى: إن لله تعالى فى الـدنيا جنة، من دخلها كان آمناً، طوبى لهم وحسن مآب، قيل: ما هى؟ قال: الأُنس بذكره.

قـال الله تعـالى فى بعض كتبـه: أوليـائى وأحبائى، تنعمـوا بـذكـرى، واستأنسوا بى، فإنى نعم الرب لكم، فى الدنيا والآخرة.

قيل لأبى بكـر الواسطـى رحمه الله تعـالى: هل تشتهى طعـاماً؟ قـال: نعم. قيل: أى شىء؟ قال: لقمةً من ذكر الله، بصفاء اليقين، على مائدة المعـرفـة، بأنـامل حسن الظـن بـالله، من جَفْنَـةِ (إنـاء) الـرضـا عن الله سبحانه.

وروى أن الله تعالى قال للخليل عليه الصلاة والسلام :

أتدرى لم اتخذتك خليلا؟ قال : لا، قال : لأنك لا تُغفلُ قلبك عنى، وعلى كل حال، لا أراك تنسانى .

*لولا أنك أمرتنا بذكرك، فمن كان يجترىء أن يذكرك ؟ إجلالاً وإعظاماً لك سبحانك .

عجباً للذاكرين !كيف تثبت قلوبهم فى أبدانهم عند ذكر عظمتك ! .

وروى أن الله تعالى، قال لموسى عليه الصلاة والسلام : يا موسى ! إنى لم أقبل صلاة ولا ذكراً إلا ممن يتواضع لعظمتى، ويلزم قلبه خوفى، ويقطع عمره بذكرى .

يا موسى ! إن مثله فى الناس، كمثل الفردوس فى الجنان، لا يتغير طعمها، ولا ييبس ورقها، فأجعلُ له عند الخوف أمناً، وعند الظلمة نوراً، وأجيبه قبل أن يدعونى، وأعطيه قبل أن يسألنى .

وروى كعب الأحبار رحمه الله تعالى أن الله تعالى قال : من شغله ذكرى عن مسألتى، أعطيته أفضل مما أعطى سائلى .

وقال عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : طوبى لمن ذكر الله، ولم يذكر إلاّ الله، وطوبى لمن يخشى الله، ولم يخش إلا الله .

وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام لما قال : يا أسفى على يوسف، أوحى الله تعالى إليه : إلى متى تذكر يوسف ؟ أيوسف خلقك، أو رزقك، أو أعطاك النبوة ؟ فبعزتى لو كنت ذكرتنى، واشتغلت بى عن ذكر غيرى، لفرجت عنك من ساعتك .

فعلم يعقوب أنه مخطىء فى ذكره يوسف، فأمسك لسانه عن ذكره .

وقالت رابعة البصرية رضى الله عنها : ما أوحش الساعة التى لا أذكرك فيها ؟! .

وقال موسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم :

إِلَهى ! أقريب أنت فأناجيك ؟ أم بعيد فأناديك ؟ .

فقال الله تعالى : أنا جليس لمن ذكرنى ، وقريب ممن أنس بى ، أقرب إليه من حبل الوريد .

قيل لذى النون ـ رحمه الله تعالى : متى يكون ذكر الله للعبد صافياً ؟ .

قال : إذا كان به عارفاً ، وممن دونه متبرئاً .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ذكر الله طعام الروح ، والثناء عليه شراب الروح ، والحياء منه لباس الروح ، وما تلذذ المتلذذون بمثل ذكره ، وما تنعم المتنعمون بمثل أُنسه .

إن الله تعالى قال فى بعض الكتب : من ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ ، ومن ذكرنى من حيث هو ، ذكرته من حيث أنا .

وقال : إن الخلائق صاحوا من إبليس ، وإن إبليس صاح من الذاكرين ، وتلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما من مؤمن إلا وعلى قلبه شيطان ، إذا ذكر الله خنس ، وإذا نسى الله وسوس .

ذكر الله شفاء لا يضر معه داء ، وذكر الناس داء لا ينفع معه دواء ! .

فاجعل ذكر الله قِبلة همك ، وإضاءة مسجد فكرتك ، واعلم أن حقيقة الاستئناس بذكر الحبيب ، هو نسيان غيره .

من شغله ذكر الله تعالى ، فنى عن ذكر ما سواه ، وصار مدهوشاً تحت لطائف صنعه ، وتلاشت كليته تحت جمال حسن عنايته ، واستغرق فى بحار ذكر امتنانه .

لِلنَّاسِ عِيدَانِ مَعْدُودَانِ فِى سَنَةٍ
وَلِلْمُرِيدِ جَمِيعُ العَصْرِ أَعْيَادُ
فَالذِّكْرُ عَادَتُهُ وَالْحَمْدُ رَاحَتُهُ
وَالْقَلْبُ فِى مَلَكُوتِ ٱلرَّبِّ أَوَّادُ (١)

****

(١) أوّاد : يهتز من الفرح كثيرًا .

الحديث التاسع عشر:

قيام الليل وصيـــــــام النهار

أخبرنا الفقيه الصالح : بندار بن بختيار الواسطى ، قال : أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد المهـدى الهاشمى ، قال : أنبأنا أبـو عثمان اسماعيل بن محمد ، قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله الضبى ، قال : أنبأنا سليمان ابن أحمـد ، قال : أنبأنـا إدريس بن جعفر العطـار، قال : أنبأنـا يزيـد بن هارون بن محمد ، عن عمرو بن علقمـة ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عمرو، قـال : دخل عليَّ رسول الله بيتى فقال : « **يا عبدَ الله بنَ عَمْـرو ! ألم أُخْبَـرْ أنكَ تَكَلَّفُ قِيَـامَ اللَّيلِ وَصِيَـامَ النَّهَـارِ ؟ قَلتُ : إنِّى أفعل . فقـال : إنَّ من حسبكَ أن تصوم من كل شهـرٍ ثلاثـةَ أيَّامٍ ، الحسَنَـةُ بِعشرِ أمثالِها ، فكأنك قد صُمتَ الدهر كلهُ** » (١).

ففى هذا الحديث الشريف أسرار:

منها : البشـارة بتواصل نور الأعمـال ، بنور الأعمـال ، من دون انقطاع ، وإن تباعدت الأوقات .

ومنها : مضاعفة ثواب العمل لهذه الأمة ، الحسنة بعشر أمثالها ، لتنشط قلوبهم لعمل الخير.

ومنها : الأمر بعدم التكلف ، الذى يُفضى بالعبد إلى السأم والملل .

ومنها : لزوم التذكر، حتى لا تطم القلبَ الغفلة .

ومنها : الإيمان القطعى بوعد الله وحسن كرمه .

---

(١) رواه الإمـام أحمد ، ومسلم ، البخـارى ، وأبـو داود ، والترمـذى ، والنسـائى ، وابن ماجـه ، والدارمى ، وابن سعد .

وكل هذه الخصال، خصال العارفين، الذين انقطعوا عن كل الهموم الدنيوية والأخروية، وصار همهم ربهم، ومن كان همه ربه، فلا هَمَّ لَهُ.

قال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ فى مناجاته: إِلَهى! إن عرفتك، فأنت الذى قد هديتنى، وإن طلبتك، فأنت الذى أردتنى، وأن أجبتك، فأنت الذى اخترتنى، وإن أطعتك، فأنت الذى وفقتنى، وإن أَنَبْتُ إليك، فأنت الذى آويتنى.

وإن الله تعالى لا يكِلُ العارفين إلى أنفسهم ولا إلى طاعاتهم، ولا إلى ذِكْرهم، بفضله ورحمته، بل يكلؤهم بأكاليل شفقته، ويمطر عليهم أمطار رحمته، من سحائب فضله وعنايته.

وروى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب! كيف لى أن أؤدى شكر نعمك، ولك علىَّ فى كل شعرة نعمتان؟.

فقال له: يا موسى! إذا عرفت أنك عاجز عن شكرى، فقد شكرتنى.

وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أُشكر نعمتى عليك.

فقال: إِلَهى! وكيف لى أن أشكرك، وشكرى لك على النعم أعظمُ نعمةً علىَّ؟.

فأوحى الله تعالى إليه: إذا علمت ذلك، فأنت أشكر العباد لى.

وقال محمد بن السماك رحمه الله تعالى: أُذْكر من كان ذكره لك قبل ذكرك، وحبه قبل حبك، وما ذكرته إلاَّ بذكره لك، وما أحببته إلاَّ بحبه لك.

وقال أبو بكر الواسطى رحمه الله تعالى: من نسى ذكر الله تعالى كان مستدرجاً.

* واعلم أن أدنى أوصاف العارف، عيش القلب مع الله بلا علاقة، وذلك من ذكر الله إياه، وذلك بَيِّن فى قول الله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وقيل فى قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ أى القليل من يرى مِنتى عليه، عند شكره لى !.

[بالله نشكر الله] :

وروى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال:

إِلَهى ! كيف استطاع آدم أن يشكر نعمتك عليه ؟ إذ خلقته بيديك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرتَ الملائكة فسجدوا له.

فقال الله: يا موسى ! علم آدم أنَّ ذلك منى، فحَمِدَنى عليه.

* فمن أطاعه، فبتوفيقه أطاعه، فله المِنَّةُ، ومن عصاه، فبمقدوره عصاه، فله الحجة عليه، فقد سبق فضله لمن أطاعه قبل طاعته، وقد سبق عدله لمن عصاه قبل معصيته إياه، لأنه الفعال لما يريد.

وروى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال:

إِلَهى ! لولا أنت كيف كنت أعرف من أنت ؟.

وقيل لأبى عبد الله رحمه الله تعالى: ما لنا نحب المدح والثناء ؟ فقال: لنسيان امتنان الله عليكم، وحسن عنايته التى سبقت منه لكم، فمن نسى المنة، وجحد النعمة، قلبت له النعمة نقمة !.

* **يا بنى** ! إن الله تعالى أعطاك المعرفة، ووفقك لطاعته من غير إحسان سبق منك، ومن غير شفاعة كانت لأجلك، فينبغى أن تشتغل بذكره وخدمته، من غير طلب عوض ومكافأة منه.

فأهل الذكر أصناف مختلفة، فمنهم من يذكر على جهة منَّة الإسلام، ومنهم على جهة السنَّة والجماعة، ومنهم من يذكره على جهة مِنَّةِ ذكره،

حتى يصير قلبه والهاً، ولسانه كليلاً، وعقله هائماً، ويصير فى عظمته مبهوتاً، ويتيه فى كرمه، ويدهش فى محبته، لما علم أن الأعمال لا تقوم إلاَّ به.

والذكر على وجهين: ذكر يتولد منه الخوف والخشية، وذكر يتولد منه الشوق والمحبة.

فأما ما ينتج الخوف والخشية، فهو ذكر من يذكر الله مع نفسه، ويرى ذكر الله له، سببَ ذكره لله تعالى، ويعلم أنه بذكر الله يصل إلى ذكره إياه.

وأما الآخر: فهو ذكر الذى يذكر ذكر الله له فى الأزل، حيث لم يكن موجوداً، إلى أن يصير فى الدنيا مفقوداً، ثم إلى الأبد، فوجد ذكر الله له سابقاً أزلياً، خالداً أبدياً وذكره مكدراً بالشهوات، ممزوجاً بالغفلات، فشتان بين من يدخل على الله برؤية ذكره، وبين من يدخل على الله برؤية فضله ومنته، واعلم أن ذكر العبد لله تعالى، فى إضافة ذكر الله تعالى للعبد، كالغبار تحت الأمطار.

بِذِكْرِكَ تَحْيىٰ مُهْجَتى يَا مُؤَمَّلى
وَذِكْرُكَ لِى مِنْ قَبْلِ ذِكْرِىَ أَكْبَرُ
مَنَنْتَ بِطَوْلٍ لا أَقُومُ بِشُكْرِهِ
فَأَىَّ أَيَادِيكَ الْجَزِيلَةِ أَشْكُرُ ؟

****

الحديث العشـــرون :

النوافل زاد العارفين إلى الله تعالى

أخبرنـا الشيخ الحجـة الثقـة العـارف : أبـو بكـر بن يحيى النجـاري الأنصاري الواسطي ، قـال : أنبأنا أبو القاسم طلحة الكتـاني ، قال : أنبأنا أبـو الحسين أحمـد بن عثمـان الآدمي ، قـال : حـدثنا أحمـد بن مـاهـان السمسار، قال : أنبأنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن شعبة ، عن النعمان بن سالم، قـال : سمعت عمر بن أوس يحدث عن عتبـة بن أبي سفيان ، عن أم حبيبة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ :

« مَا مِنْ عَبْـدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ تَعَـالَىٰ كُلَّ يَوْمٍ اثْنتَيْ عَشْـرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعاً مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ، إِلاَّ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ » (١) .

هذا الحديث الشريف ، يحث على ملازمة النوافل ، فإنها من المقربات إلى الله تعـالى ، وهـي زاد العـارفين في طـريقهم إليـه ـــ سبحـانـه وشأن المتجردين لجنابه جلت قدرته .

أي بُني ! اعلم أن من تجـرد بسـره عن الكل ، وتفـرد بسـر السـر الفـر، كُشِفَ له الغطاء ، واستبانت له البراهين ، عند مشاهدة نور الحق سبحانه ، وهنالـك يسقيه الله بكأس محبتـه ، حتى يسكره به عـن غيره ، ويزيـل عنه التعب والنصب ، ويصير سكوته ذكراً ، وأنفاسه تسبيحاً ، وكلامه تقديساً ، ونومه صلاة .

ولا يزال العبد يركب بسره مـركب المعرفة ، حتى يتصل بالمعروف ، فإذا اتصل بالمعروف ، بقي معه إلى الأبد ، من غير أن يلتفت منه إلى ما سواه .

واعلم أن مثل القلب كالقصـر ، والمعرفة فيه كالسلطـان ، والعقل أمير

(١) أخرجه : مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي .

على الأركـان، له تبع وأعـوان، واللسـان كالتـرجمـان، والسر من خـزائن الرحمٰن، ولا بد لكل واحـد منها من الاستقامة في مـواضعه، ودوران كلها على استقامة السر مع الحق.

فإذا استقام السر استقامت المعرفة، فيستقيم العقل.

وإذا استقام العقل استقام القلب.

وإذا استقام القلب، استقامت النفس.

وإذا استقامت النفس. استقامت الأحوال.

فالسر منوَّر بنور الجمال والجلال.

والعقل منوَّر بنور اليقظة والاعتبار.

والقلب منوَّر بنور الخشية والأفكار.

والنفس منورة بنور الرياضة والانزجار.

فالسر بحر من بحور العطايـا، وأمواج الهمة فيه لا يُحصى عددها، ولا ينقطع مددها.

وإن استقامة السر مع الحق، هي الدوام على بساط المشاهدة، مع فقد رؤية الاستقامة.

واعلم أن صراط الاستقامة: السرادق، من صراط الآخرة؛ والمرور على جسرها، أصعب من المرور على جسر الآخرة؛ وإن عالِمَ الأسرار غيور، لا يحب أن يكون في قلب العبد حب أو ذكر لغيره.

لا يريدون من الله إلا الله:

قـال الله تعالى في بعض كتبـه: إذا كان الغـالب على عبدي الاشتغـال بي، جعلت لذته وهمته في محبتي، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه.

ودخل رجل على سري السقطي رضي الله عنه، فقال له:

أي شيء أقرب إلى الله، ليتقرب به العبد إلى الله؟ فبكى السري، فقال: أمثلك يسأل عن هذا؟ إن أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله سبحانه، أن يطَّلِع اللَّهُ على قلبك، وأنت لا تريد من الدارين غيره!.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: غاية همتي ومرادي من الله تعالى، أن يجعل لي الميل إليه، فلا أرى شيئاً دونه، ولا أشتغل بأحد سواه، ثم لا أبالي إلى التراب صيرني، أم إلى العدم رَجَعني.

وقيل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: بأي شيء وجدتَ الخُلَّة؟.

فقال: بانقطاعي إلى ربي، واختياري إياه على ما سواه، وبأني ما أكلت قط إلاَّ مع الضيف.

وقالت رابعة البصرية رحمها الله تعالى:

إلَهي! همتي ومرادي في الدنيا من الدنيا ذكرك، وفي الآخرة من الآخرة رؤيتك، ثم افعل بينهما ماشئتَ.

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى: رفعت السر إلى مواصلة الحق، فطار بأجنحة المعرفة، بنور الفطنة، في هواء الوحدانية، فاستقبلته النفس، وقالت: أين تذهب؟ أنا نفسك لا بُدَّ لك مني! فلم يلتفت السر إليها.

ثم استقبله الخلق، وقالوا: أين تذهب؟ نحن رفقاؤك وندماؤك، ولا بد لك منا، ومن معاونتنا إياك! فلم يلتفت إليهم.

ثم استقبلته الجنة بكل ما فيها، وقالت: أين تذهب؟ فإني لك، ولا بد لك مني! فلم يلتفت إليها.

ثم استقبلته العطايا والمواهب، والكرامات كذلك، حتى جاوز المملكة، وبلغ سرادقات الفردانية، وجاوز الكلية والأنانية، حتى وصل إلى الحق، وهو المطلوب.

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال في بعض مناجاته: ياربِّ! عجبت ممن يجدك ثم يرجع عنك!.

فقال الله تعالى: يا موسى! إنَّ من وجدني لا يرجع عني، وما رجع من رجع إلا عن الطريق!!.

وقال أبو العباس بن عطاء رحمه الله تعالى: متى ظهرت على عبدٍ الآخرة، فنيتْ في جنبها الدنيا، وبقي العبد مع دار البقاء؛ ومتى ظهرت على العبد مشاهدة الحق تعالى، فنيَ عنده ما دون الحق، وبقي العبد مع الحق.

فراغ القلوب إلا من الله:

وقال رجل لأبي يزيد ـ رحمه الله تعالى ـ بلغني أن عندك اسم الله الأعظم، أحب أن تعلمني ذلك.

فقال أبو يزيد: ليس لاسم الله حد محدود، ولكنه فراغ قلبك لوحدانيته، وترك الالتفات منه إلى غيره؛ فإذا كنت كذلك، فخذ أي اسم شئت، تسير به من المشرق إلى المغرب، في ساعة ثم تجيء.

قال ذو النون رحمه الله تعالى: كنت حاجّاً فإذا شاب يقول:

إلَهي! قد اجتمع وفدك، وأنت أعلم، فما أنت صانع بهم؟.

فسمعت صوتاً يقول: وفدي كثير، وطلابي قليل.

وسُئل بعضهم: كم بين الحق والعبد؟.

قال: أربعة أقدام: يرفع قدماً من الـدنيا، وقدماً من الخلق، وقدماً من النفس، وقدماً من الآخرة؛ فإذا هو ثَمَّ (أي فإذا هو عند الله).

قال السري رحمـه الله تعالى: من قام على طاعة الله بغير عـلاقة، سقاه الله شربة من عين محبته، وبلغه إلى مقعد صدق.

قال علي رضي الله عنه: العارف إذا خرج من الدنيا لم يجده السائق ولا الشهيد في القيامة؛ ولا رضوان في الجنة؛ ولا مالك النار في النار.

قيل: وأين يوجد؟ قال: في مقعد صـدق عند مليك مقتدر، إذا قام من قبـره لا يقـول: أيـن أهلي وولـدي؟ ولا أين جبـريل وميكـائيل؟ والجنـة والثواب؟ ولكن يقول: أين حبيبي وأنيسي؟.

قُلُـوبُ الْعَـارِفِيـنَ لَهَـا عُيُـونٌ ... تَـرىٰ مَـا لاٰ يَـرَاهُ الْنَّـاظِـرُونَـا
وَأَلْسِنَـــةٌ بِسِـــرٍّ قَـــدْ تُنـاجِي ... تَـدِقُّ عَـنِ الْكِـرَامِ الْكَـاتِبِينَـا
وَأَجْنِحَـــةٌ تَطِيــرُ بِغَيْـــرِ رِيشٍ ... فَتَـأْوِي عِنْـــدَ رَبِّ الْعَـالَمِينَـا
فَتَـرْعَىٰ فِي رِيَـاضِ الْقُـدْسِ طَـوْراً ... وَتَشْـرَبُ مِنْ بِحَـارِ الْمُـرْسَلِينَـا
عِبَـادٌ قَـاصِـدُونَ إِلَيْـهِ حَتَّىٰ ... دَنَـوْا مِنْـهُ وَصَـارُوا واصِلينَـا

****

الحديث الحادى والعشرون :

من مكارم الأخلاق

أخبرنا الشيخ العارف بالله تعالى : سيدى عبد الملك بن الحسين ، بن ميمون بن الحسين ، الحربونى الواسطى قدس الله سره ، قال : أنبأنا الشيخ الثقة عبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد .

أقول : وبهذا السند عن عبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد ، بزيادة لفظة ابن يوسف بعد أحمد ، أجازنا كتابة مولانا الخليفة المفترض الطاعة فى الأرض ، القائم لله بإحياء السُّنَّة والفرض ، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله العباسى الهاشمى ، أعز الله به كلمة الدين والمسلمين ، وأيد باقتداره شريعة سيد المرسلين ، عليه صلوات رب العالمين ، وعبد الحق ابن عبد الخالق بن أحمد بن يوسف المتقدم ذكره .

قال : أنبأنا أبو الحسن محمد بن مرزوق بن عبد الرزاق قراءة ، قال : أنبأنا على بن أحمد بن على ، قال : أنبأنا عمى الحسن بن على .

قال محمد بن مرزوق : وقرأت على أبى نصر محمد بن سلمان ، أخبركم ذو النون بن محمد بن عامر ؟ فأقرَّ به ، قال : أنبأنا أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد ، قال : حدثنا محمد بن هارون ، قال : أنبأنا محمد بن العباس النسى ، قال : أنبأنا عمرو بن أبى سلمة ، قال : حدثنا صدقة ، عن الأصبغ ، عن ابن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، أن النبى ﷺ قال :

« صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِى مَصَارِعَ ٱلسُّوءِ ، وَإِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِىءُ غَضَبَ ٱلرَّبِّ ، وَإِنَّ صِلَةَ ٱلرَّحِمِ ، تَزِيدُ الْعُمُرَ ، وَتَنْفى الْفَقْرَ »[1] .

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير.

فى هذا الحديث الشريف، من مكارم الأخلاق، ما يصعد همة العارف إلى حضرة ربه، فإن أُسَّ المعرفة بالله : مكارم الأخلاق، وأما سوء الأخلاق، فهو والعياذ بالله من انحجاب السر عن الله تعالى.

أى بنى ! اعلم أن أعظم مصائب السر، حجابه عن الله تعالى، فكل من حلت به هذه المصيبة، فقد تلاشت سائر مصائبه فى جنبها، فإنَّ المحب سكران، والسكران لا يجد حالة سكره وجع المصيبة، فإذا أفاق وجد الألم.

ومصيبة المحجوب عن الله لا تنجبر أبداً، إلا بتجريد السر عن كل ما دون الله تعالى.

ولا وعيد فى القرآن أصعب من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

فكم من طاعة حجبت صاحبها عن المطاع ؟.

وكم من نعمة قطعت صاحبها عن المنعم.

ورُبَّ نائم رزق الانتباه بعد رقدته، ومنتبه نام بعد طول الانتباه !.

ورُبَّ فاجر رزق الولاية، وبلغ منازل الأبرار ! وزاهد سقط من ولايته، وسلك مسالك الفجار !.

الحجاب عقوبة البُعد عن الله

وكم من عامل قد حجبته رؤية أعماله، عن رؤية امتنان ربه، حتى عمى بصره، فصار مبعداً، وهو يحسب أنه واصل ؟ ولا مصيبة أشد على العارف من الحجاب، ولو طرفة عين، وأعظم عقوبة على العبد من الله : البعد والحجاب.

وحُكِىَ أن رجلا من العباد قال : إلهى ! إلى كم أعصيك ولا تعاقبنى؟! .

فأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان : قل له : إلى كم أعاقبك وأنت لا تدرى؟! ألم أحجبك عن لطائف أنسى ! ألم أُخرج عن قلبك حلاوة مناجاتى ! .

وقال أبو موسى ــ خادم أبى يزيد ــ رحمهما الله تعالى : دخل الشيخ مدينة ، فتبعه خلق كثير، فلما نظر أبو يزيد إليهم وإلى ازدحامهم نحوه ، قال :

اللهم إنى أعوذ بك أن تحجبنى عنك بهم ، وأعوذ بك أن تحجبهم عنك بى .

* رحمه الله ما أكثر إنصافه ! ما أصدقه بربه ، ما أشفقه على إخوانه المسلمين ، أراد لهم الخير وصحة النظر، كما أراد لنفسه .

تنبه يا من يريد اجتماع الناس عليه ، واعتقادهم به ! كم طَيَّرَتْ طقطقة النعال حول الرجال من رأس ؟ وكم أذهبتْ من دين ؟ اللهم سلِّم ، اللهم سلِّم .

اعلم أن الناس أربعة أصناف :

١ ــ رجل جعل الله قلبه بصيراً ، ينظر بنور اليقين إلى لطائف صنعه وكمال قدرته .

٢ ـ ورجل جعل الله عقله بصيراً ، ينظر بنور الفطنة إلى الوعد والوعيد .

٣ ـ ورجل جعل الله سره بصيراً ، ينظر فى كل الأوقات بنور المعرفة ، إلى الله تعالى .

٤ ـ ورجل جعلـه الله مكفوفاً، لا يبصر شيئـاً ! فهو مظهر قولـه تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ فِى هٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ .

واعلم أن الكفار محجوبون بظلمة الضلالة، عن نور الهدى .

وأهل المعصية محجوبون بظلمة الغفلة، عن أنوار التقوى .

وأهل الطاعة محجـوبون بظلمة رؤية الطاعة، عن أنـوار رؤية التوفيق، وعنـاية المـولى، فإذا رفع الله عنهم هـذه الحجب، نظروا بأعين النـور إلى النور، فعند ذلك يحجبون عن غيره به .

فكل من نظر إلى حركاته وأفعاله فى طاعة الله، صار محجوباً عن وليها مفلساً .

ومن نظر إلى وليهـا، صار محجوبـاً به عن رؤيتها، لأنـه إذا رأى عجزه عن تحقيقها وإتمامها، صار مستغرقاً فى امتنانه .

وربما يُحجب برؤية العبادة عن وجدان حلاوتها .

وربما يحجب برؤية وجدان الحلاوة عن صحة الإرادة .

وربما يحجب برؤية المِنَّة عن المنَّان سبحانه .

قال النساج رحمـه الله تعالى : من رأى نفسه عند الطـاعة، لم يتخلص من العجب ! .

ومن رأى الخلق، لم يتخلص من الرياء ! .

ومن رأى الطاعة، لم يتخلص من الغرور ! .

ومن رأى الثواب، لم يتخلص من الحجاب ! .

ومن رأى الربَّ تعالى، فذلك فى مقعد الصدق، عند مليك مقتدر.

وقـال بكر بن عبـد الله رحمـه الله تعالـى : من اشتغل بطرائف الحكمـة

ودقائقها، صار محجوباً عن حقائقها، وما أعرِفُ معصيةً أضرَّ بصاحبها من نسيان الربِّ، وعلاقة القلب بغيره ! .

وقال: كل همٍّ وذكر لغير الله تعالى، فهو حجاب بينك وبين الله .

وفى الخبر: « **رُبَّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا الرَّجُلُ لَا يَكُونُ لَـهُ سَيِّئَةٌ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْهَا وَرُبَّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا الرَّجُلُ لَا يَكُونُ لَهُ حَسَنَةٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا** » .

قيل فى معناه: لأن الحسنة محمودة، والسيئة مذمومة، فما دام العبد فى الحسنة مع رؤية الحسنة، فهو فى ميدان الدلال والافتخار ! وما دام العبد فى السيئة مع رؤية السيئة، فهو فى ميدان الانكسار والافتقار، وحال العبد فى وقت الافتقار أحسن .

قال الإمام أبو بكر الصديق رضى الله عنه :

« اللهم إنى أعوذ بك من الشرك الخفى » .

قالت رابعة رضى الله عنها: حجبت الدنيا قلوب أهلها عن الله، فلو تركوها لجالت فى ملكوته، ثم رجعت بطرائف الفوائد ! .

قيل لسيدى منصور الربانى رضى الله عنه: بأى شىء يعرف العبد أنه غير محجوب عن ربه ؟ .

قال: إذا طلبه، ولم يطلب منه، وأراده، ولم يُرِدْ منه، وأن لا يختار على اختياره شيئاً، وإن اختار له النار.

وكل من ليس فى قلبه سلطان الهيبة، ونار المحبة، وأنس الصحبة، فهو محجوب ! .

وقال: كفاك من المعرفة أن تعلم أن الله مطلع عليك .

وكفاك من العبادة أن تعلم أن الله مستغن عنك .

وكفاك من المحبة أن تعلم أن حبه سابق على حبك .

وكفاك من الذكر أن تعلم أن ذكره متقدم على ذكرك .

القلوب إذا قعدت على بساط الهيبة ، زالت عنها الشهوات .

وإذا قعدت على بساط المعرفة ، زالت عنها الغفلات .

وإذا قعدت على صدق الفردانية بالفرد للفرد ، فذلك المقعد الصدق .

****

الحديث الثانى والعشرون :

كونوا عباد الله إخوانا

أخبرنا الشيخ الثقة العارف بالله تعالى : عبد الملك بن الحسين الحربونى، قدس الله روحه، قال : أخبرنا أبو مطيع محمد بن عبد الواحد الأديب، قال : أنبأنا أبو بكر عبد الله بن أحمد بن العباس الباطرقانى، قال : أنبأنا سليم بن أحمد الطبرانى، قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم الديرى، قال : أنبأنا عبد الرزاق، قال : أنبأنا معمر، عن الزُّهرى، عن أنس ابن مالك رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ :

« **لَا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَجَسَّسُوا، وَكُونُوا إِخْوَاناً كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ** » [والحديث بنصه هكذا كما رواه البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إِيَّاكُمْ وَٱلظَّنَّ، فَإِنَّ ٱلظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلاتَحَسَّسُوا، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَنَافَسُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ ٱللَّهِ إِخْوَاناً كَمَا أَمَرَكُمْ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَىٰ هٰا هُنا، التَّقْوىٰ هٰاهُنا، التَّقْوىٰ هٰا هُنا - وَيشِيرُ إلى صَدْرِهِ - بِحَسْبِ ٱمْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ: أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسلِمِ عَلىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعِرْضُهُ، وَمَالُهُ، إِنَّ ٱللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ، وَلا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ** »].

هذا الحديث الشريف، تضمن من أسرار المعرفة بالله العجائب، فإنه أمر بالتخلى عن الصفة الإبليسية، وهى : الحسد، ثم بالتجرد من الصفة النفسانية، وهى : البغض لغير الله تعالى، ثم بالترفع عن الصفة السافلة

الهوائيـة ، وهى : التجسس ، ثم بعد أن أكمل درجـات التنقية ، أمر بـرؤية عدم الفرقية بين المرء وبين إخوانه ، وأن هذا من أمر الله تعالى .

وإذا كملت للعبد هـذه الخصال ، فقد أحكم شأن المعرفـة بالله ، ومن هـذا السر قـول سيـدنا على كـرم الله وجهـه ، ورضى الله عنه : « من عـرف نفسه ، فقد عرف ربه » .

ليس منا من التفت إلى غيرنا

أى بنى ! اعلم أن العبد بين الله وخلقه :

إن التفت منـه إلى الخلق ، تجـرد عن الحق ، وصـار متـروكاً محـرومـاً مخذولاً .

وإن التفت إلى الله عن الخلق ، قرَّبه الله وأدنـاه ، وأوصله إلى قربه ، فإنَّ الله تعـالى إذا أحب عبدًا غـار عليـه على قـدر قربـه منـه ، وحبه لـه ، ولم يحتمل منه الالتفات إلى شىء سواه ، فإنه إن نظر إلى شىء دونه ، عذبه الله بذلك الشىء ، وجعله وبالا عليه .

أما ترى أن إبليس لعنه الله ، نظر إلى نفسه ، وقال عن آدم : أنا خير منه ! فلعنه وطرده .

وكذلك نظر فرعون إلى ملكه ، وقال : أليس لى ملك مصر ؟ فغرقه .

وقارون نظر إلى ماله وقال : إنما أُوتيته على علم عندى ! فخسف الله به وبداره الأرض ! .

وكذلك الملائكة : نظروا إلى تسبيحهم وتقديسهم حيث قالوا : ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فابتلاهم الله تعالى بالسجدة لآدم .

وكذلك كل مـن قال : أنا ، . يقـول الله تعالى : لا. بل أنـا ، ثم يرده إلى أسفل السافلين .

وكل من يقول : أنت الله ، يرفعه إلى أعلى عليين .

والالتفات على وجهين ، التفات العين ، والتفات القلب .

فالتفات العين مثل ما قال الله تعالى لمحمد حبيبه عليه الصلاة والسلام :

﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيه وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

ثم منَّ عليه لَمَّا عصمه حيث قال تعالى :

﴿ وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ .

ثم مدحه بترك الالتفات إلى ما سواه ، فى قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .

ثم أورثه ذلك الترك الكلي ، أن رفع له الحجاب ، حتى رأى ما رأى ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ .

وأن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ .

قال : انظر إلى الجبل ، ولن ترانى بعد أن نظرت إلى غيرى .

كان بعض العارفين ، يطوف حول الكعبة ، فناداه واحد ، فخطر بباله أن يلتفت إليه ، فسمع هاتفاً يقول : ليس منَّا من التفت إلى غيرنا ! .

وحكى أن آخر ، كان يطوف حول الكعبة ، فنظر إلى امرأة ، فظهرت يد من الهواء وفقأت عينه ! .

ثم نودى : نظرتَ بعينك إلى دوننا ففقأناها ، ولو نظرتَ بقلبك إلى غيرنا لكويناه ! .

وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من نظر من توحيده إلى نفسه ، لم ينجه التوحيد من النار.

ومن التفت من الصلاة إلى غيرها ، فقد سقط عن درجة المصلين .

ومن التفت من وقته إلى وقته ، ذهب عنه الوقت وهو لا يشعر.

وفى الخبر: إذا التفت العبد فى الصلاة ، يقول الله : عبدى تلتفت إلى من هو خير لك منى ؟ ! أقبل . ولا تُعرض بوجهك عنى ، فإنى إذاً أُعرضُ عنك ! .

قال النبى عليه الصلاة والسلام :

أتانى جبريل بمفاتيح خزائن الدنيا ، فلم ألتفت إليها ولم أقبلها .

قيل لبعضهم : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت وقد منع الكونين عنى ، ومنعنى أن أنظر إليهما .

وقال العارف السرىُّ السَّقطى رضى الله عنه : كنت فى طلب صديق لى ثلاثين سنة ، فلم أظفر به ، فمررت يوماً فى بعض الجبال ، فإذا هو قائم على صخرة ، فدنوت منه وأخذت ذيله ، فقال : خلِّ عنى يا سَرِى ! فإن الحق غيور، فلا يراك تأنس بغيره ، فتسقط من عينيه ! .

وحكى أن رابعة ـ رحمها الله تعالى ـ كانت فى طريق مكة ، فأقبل إليها رجل وقال : يا هذه ! كُلِّى بكلك مشغول .

فقالت : إن كنتَ صادقاً ، فكلى لكلك مبذول ! إلاَّ أنَّ لى أختاً أحسن منى وهى وراءك ! فالتفت الرجل ، فلطمته رابعة على وجهه ! وقالت :

إليك عنى يا بطال ! ادَّعيت محبتنا ، ثم نظرت إلى غيرنا ؟ رأيتك من بعيد فقلت : وجدتُ عارفاً ، فلما تكلمتَ قلتُ : وجدتُ عاشقاً ، فلما جربتك وجدتك كذاباً ! .

ما رأيت معك صفاوة العارفين ومروءتهم ، ولا طريقة العاشقين وصيانتهم .

فصاح الرجل، وجعل التراب على رأسه، وقال: ادَّعيتُ محبة مخلوق فأعرضتُ عنه، جاءت اللطمة على وجهى! فأخاف أن أدعى محبة الخالق، فإذا أعرضت قلبى أن تكون اللطمة على قلبى.

وأما الالتفات بالقلب، فقد حُكى أنه كان لفتح الموصلى صبى، فيوماً من الأيام عانقه وقبله، فنودى من الهواء: يا فتح! ادَّعيْتَ محبتنا وفى قلبك حب غيرنا؟ فصاح صيحة، خرَّ مغشياً عليه.

ونظرت رابعة البصرية إلى رباح القيسى، وهو يقبل صبياً من أهله، فقالت: أتحبه؟ قال: نعم، قالت: ما كنت حسبت أنَّ فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره؟.

ففزع القيسى فزعاً شديداً حتى غشى عليه، فأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه.

قال ﷺ «لو كُنْتُ مُتَّخذاً خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّى لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، ولٰكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ».

وحكى أن داود عليه الصلاة والسلام، استقبله رجل فى بعض سياحاته، فقال: أين تريدُ؟.

قال: استوحشت عن الناس، واستأنست بالله.

فقال له الرجل: هذا مِنْ قِبَلكَ أو مِن قَبَلِ الله؟.

قال: فسقط داود مغشياً عليه، ثم أفاق وقال: نبهك الله كما نبهتنى؟.

وقال بعضهم: إن الله تعالى أمر قوم موسى بقطع رؤوسهم حين سجدوا للعجل، بعد أن سجدوا لله تعالى.

فقال: رأس سجد لى، ثم سجد لغيرى، فلا يصلح لى، فكذلك القلب.

وبلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام قال : أوتيت ما أوتى الناس ، وما لم يؤتوا ، وهممت بما همَّ به الناس ، وما لم يهموا ، فوجدت الأشياء كلها لله ، والأمور كلها بيد الله ، والحاصل من الدارين وما فيهما هو: الله .

* فلا ينبغى لمن ادَّعى محبته ، أن يكون فى قلبه حب لغيره . قالت رابعة رحمها الله تعالى :

يَا حَبيبَ الْقُلُوبِ مَنْ لِى سِوَاكَا   اِرْحَم الْيَوْمَ مُذْنِباً قَدْ أَتَاكَا
يَا حَبِيبِى وَصَفْوَتِى وَرَجَائِى   كَذَبَ الْقَلْبُ إِنْ أَحَبَّ سِوَاكَا
يَا أَنِيسِى وَمُنْيَتِى وَمُرَادِى   طَالَ شَوْقِى مَتَىٰ يَكُونُ لقَاكَا

****

الحديث الثالث والعشرون :

كل الخيـــــــــر من كتاب الله

أخبرنا شيخنا الشيخ الكبير، العارف بـالله تعالى، القاضى المقرى : أبو الفضل على الـواسطى رضى الله عنه، قال : أنبـأنا أبو الحسين عـاصم بن الحسن بن المقرى، قال : حـدثنا أبو عمر عبد الواحـد بن محمد، قال : أنبأنا مهدى بن إسمـاعيل بن محمد الصفار، قال : أنبأنـا محمد بن عبيد الله بن المناوى، قال : أنبأنا شبابة - يعنى ابن سوار - قال : أخبرنا شعبة بن علقمة بن مزيد، عن سعيد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن السُّلمى، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال :

« خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »[١].

هذا الحـديث الشريف، يفيد أن الخيـرية قـد صحت لمن تعلم القرآن وعلَّمـه، لما فى القـرآن العظيم من بـالغ الحكم وغـامض السر، وخطيـر الشأن.

وهو حبل الله الأعظم، به يهتدي المهتدون، ويصل الواصلون.

وهو خُلُقُ رسـول الله ﷺ، وبابُ الله تعالى، والمعجزة الـدائمة، والنور الذى لا ينحجب.

وعنه تأخـذُ أرواحُ العارفين أسـرار المعرفة، وأمـا المعرفـة التى لم ترجع إليه، فما هى إلاَّ زور وضلالة.

ومتى تحقق العبد بالعلم بالقرآن العظيم، فقد صار عارفاً، وانكشفت له الأسرار الربانية، الملكية والملكوتية.

---

(١) رواه الإمام أحمد، والبخارى، والترمذى، وابن ماجه.

ومتى صار عارفاً حنَّ وأنَّ، وطلب زيادة العلم بالله، من كل طريق، ومن كل فن، وكل الطرق والفنون فى القرآن العظيم.

والعارفون هم الراسخون في العلم، يقولون: آمنا به، وإليه منتهى سير هممهم، وعنه يصدرون، وبه يهيمون، ومنه يأخذون.

ولذلك يقال فيهم: ندماء الحق، وبهذا السر يفَرِّقون بين الباطل والحق.

استدراج الله تعالى ومكره:

أى بنى! اعلم أن الله تعالى ربما يزين أعداءَه بلباس أوليائه وأصفيائه، حتى إنهم يغترون بصفاء الأوقات، ويحسبون أنهم من أهل ولايته! فهذا من الله لهم استدراج.

وربما يزينهم بالعز والجاه والرياسة، والمنزلة عند الناس، حتى يغتروا بثناء الناس ومحمدتهم، ويحسبون أنهم من أهل فضله! فهذا أيضاً من الله استدراج لهم.

وكذلك ربما يزينهم بأنواع لطائف الحكمة، فيغترون بحسن بلاغتهم، وكمال فهمهم وفطنتهم، ويحسبون أنهم أحاطوا بكل حقيقة علماً، فهذا لهم من الله استدراج.

وربما يزينهم بلباس النعمة، ويغرقهم فى أنواع النعم، فيغترون بحسن تجملهم، وطيب عيشهم، ويحسبون أنهم على شىء من الله، فهذا لهم من الله استدراج.

ولا يتركهم حتى يردهم إلى حقيقة معلومة، قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

فهذا ما كدر عيش المريدين فى دار الدنيا، حتى دام كمدهم، واصفرت ألوانهم، وذابت نفوسهم، ودهشت عقولهم، وطارت أفئدتهم، وانشقت مراراتهم، وفقدوا من الخلائق، وواجب على كل ذى عقل ، ومعرفة: أن يحذر مولاه، كما حذر نفسه بقوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾.

وقال ﷺ « المؤمن لا يسكن اضطرابه، ولا تأمن روعته، حتى يخلف جسر جهنم ».

* ألا إن الله تعالى غيَّبَ مكره فى حلمه، وخداعه فى لطفه، وعدله فى كرمه، وخذلانه فى أنواع نعمه، وسخطه فى جميل ستره، وقطيعته فى إمهاله.

فينبغى للعبد أن لا يعتمد على حسن أوقاته، وكثرة حسناته، فكم من أحد تراه فى زى المريدين، وهو فى علم الله من المطرودين! ولا يشعر أن الله ـ تعالى ـ ربما يُزيِّن عدوّه بلباس أوليائه، ثم يرده آخر الأمر إلى بُعْدِه.

وربما يكسو وليه لباس الأعداء، ثم يرده آخر الأمر إلى حقائق كرمه، لأنه هو يُبدىء ويُعيد.

يعنى: يبدىء على أوليائه صفات أعدائه، وعلى أعدائه صفات أوليائه، ثم يعيدهم إلى حقائق معلومة، وهو الفعال لما يريد، بإظهار فضله فى أهل عدله، وإظهار عدله فى أهل فضله.

ألا ترى أن الله تعالى زين إبليس بزينة عصمته، وهو فى سابق علمه من أهل اللعنة؟ ستر عليه ما سبق منه إليه، حتى أظهر أمره فى العاقبة.

وكذلك زين « بلعام » [وهو رجل من بنى اسرائيل جحد فضل الله تعالى] بأنوار ولايته، وهو عند الله تعالى من أهل سخطه.

وأغرق قارون فى بحار نعمته، وهو عند الله تعالى من أهل سخطه.

لا يغرنك بالله أربعة أشياء :

١ ـ اظهاره لك ما لم تعلم .

٢ ـ وستره عليك بما قد عملت .

٣ ـ وزيادته لك فيما لم تشكره .

٤ ـ واعطاؤه إياك ما لم تسأله .

فإنه ربما أراد الله تنبيهًا لك أو استدراجاً .

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى :

من رأى صنع الربوبية، عند إقامة العبودية، انقطع عن نفسه، واعتصم بربه، وفوض أمره إليه، فحينئذ يسلم من آفات الاستدراج .

[أنواع الاستدراج] :

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول :

يا معشر المستورين بالنعم والعِصَم ! لا تغتروا، فإن تحتها آفاتِ النِّقَم .

لا تغتروا بعمارة الأوقات، فإن تحتها غوامض الافات .

ولا تغتروا بصفاء العبودية، فإن فيها نسيان الربوبية .

والأمر كما قال، فَيا رُبَّ مستدرج بالإحسان إليه، ويَا رُبَّ مغتر بالثناء عليه، ويا رُبَّ مفتون بالنعم عليه، ويَا رُبَّ مستهلك بالستر عليه ! .

فمن لم يكن باطنه فى ملازمة الحق تعالى عين ظاهره، كان شكه أغلب من يقينه، وإن كان ظاهره يدل على أوصاف الموقنين، وفقدان أنوار الباطن من رؤية حركات الظاهر، والغفلة عن غوامض آفات الاستدراج من رؤية صفاء العبودية .

فليس للموفق أن يعتمد ، ولا للمخذول أن ييئس .

واستدراج أهل الذنوب الركون إليها ، والإصرار على الإعراض عن الله سبحانه .

واستدراج أهل العلم : طلب الجاه والمنزلة عند الخلق .

واستدراج أهل الاجتهاد : الاستكثار والإعجاب .

واستدراج المريدين تطلعهم إلى العطايا والكرامات ، وسكونهم إليها .

واستدراج العارفين : استغناؤهم بالمعرفة دون المعروف ، حتى جعلوا لها حداً وغاية ونهاية ، وظنوا أنهم قد أحاطوا بها ! فكل من كان منزلته أرفع ، كان استدراجه أعظم وأدق .

كم من مذكِّرٍ لله ، ناسى الله ! .

وكم من مخوف بالله ، جرىء على الله ! .

وكم من داع إلى الله ، بعيد من الله ! .

وكم من تال كتاب الله ، منسلخ من آيات الله ؟ .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى : لو كنت تركت الدنيا وافتخرت بتركها ، فالفخر أعظم من إمساكها .

ولو تركت عيوب النفس وأعجبت بتركها ، فالعجب عيبه أكبر.

ولو جهدت وتعلقت بجهدك ، فتعلقك أعظم الاستراحة .

ولو خفت وأمنت على أنك خفت ، فالأمن من الخوف أكبر.

ثم قال : رؤية القرب فى القرب ، أقرب البعد .

ورؤية الأُنس فى الأُنس أعظم الوحشة .

ورؤية الذكر فى الذكر أشد النسيان .

ورؤية المعرفة فى المعرفة أكبر النكرة .

وقال بعض أهل المعرفة : كلما ظننت أنى وجدت ، فحينئذ فقدت ، وكلما ظننت أنى فقدت فحينئذ وجدت .

إِلَهى ، إن تركتُك طلبتنى ، وإن طلبتك طردتنى ، لا معك قرار ، ولا مع غيرك أنس ، فالمستغاث منك إليك .

وقال أبو يعقوب رحمه الله تعالى : أجهل ما يكون العبد بالله ، إذا ظن أنه استغنى عن الدنيا بالمعرفة .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى : ذنب افتقرتَ به إليه ، خير من طاعة افتخرت بها عليه .

وكان فضيل كثيراً ما يبكى ويردد هذه الآية : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ يقول : عملوا أعمالاً حسبوا أنها حسنات ، فإذا هى سيئات ! حين يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ! .

* أى بنى ! المعرفة مستقر ومستودع ، مستقر فى قلوب الأولياء ، ومستودع فى قلوب الأعداء ، ثم يسلب فى آخر الأمر ، فليس للموفق أن يعتمد على توفيقه ، ويأمن من مكره ، ولا للمخذول أن ييأس من روح ربه .

وربما يرى الرجل للرجل الرؤيا الصالحة ، وهو استدراج من الله تعالى .

كما حكى أن رجلاً من أهل الشام ، أتى إلى العلاء بن زياد وقال له : إنى رأيتك فى المنام ، كأنك من أهل الجنة .

فترك مجلسه وأخذ فى البكاء ، وقال : لعل الله أراد أمراً ؟ .

أصل الاستدراج نسيان الله :

قيل : أصل الاستدراج نسيان الحق ، والاستغناء بمن دونه ، والتعلق بما سواه ، والالتفات منه إلى غيره .

وليس على تحقيق فى المعرفة من يغتر بكثرة العلم والعمل ، لأن إبليس كان معلم الملائكة ، ثم فى آخر الأمر نظر إلى نفسه وعبادته .

وترك أمراً من أوامر الله ، فصار من الملعونين المطرودين أبد الآبدين .

وإياك أن تغتر بعمارة الأوقات ، وصفاء الأحوال ، فإن « برصيصاً » (رجل كفر بالله بعد إيمانه) » و « بلعام » كانا أعْبَدَ الناس فى زمانهما وأحسنهم حالاً! وفى آخر الأمر مالا إلى النفس والهوىٰ ، فصارا مفتضحين فى الدنيا والآخرة ! .

ولا تغتر بصحبة الصالحين والزهاد ، بغير الحرمة والمتابعة لهم ، فالصحبة لو نفعت ، لنفعت امرأة نوح ، وامرأة لوط ، ولأن الاغترار مدرجة من مدارج الاستدراج .

قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .

وذلك أن الشيطان ربما يأتى الزاهد ليغره ، فيقول : يا ولى الله ! ويا خيرته من خلقه ! أما ترى من ربك هذه الكرامات والعطايا ، والقرب والأُنس ! .

أما تدرى ما ألهمك ربك من كلام أهل المعرفة ، وحقائق أنواع الإشارات! فهل يكون مثل هذا إلا لأهل محبته ، أما ترى حال قربك معه ، وكمال لطفه بك ، وأنك لو أقسمت على الله لأَبَرَّك ! .

ولا شك أن الملائكة ينظرون إلى حركاتك وسكناتك ، وحسن أحوالك ، وقد رجح فضلك على أهل زمانك ، فما أغفل الناس عما أنت فيه! .

حتى يغره بأنواع مكره وخديعته ، فإن تداركه الله بالفضل والرحمة ، وبصره بمكائد عدوه ، وعرج ملتجئاً بسره إلى سرادقات قدرته ، فعند ذلك يسلم من درجات آفات الاستدراج .

واعلم أن قلوب أهل المحبة ، لا تزال تموج من خوف الاستدراج كما تموج البحار، حتى يصير كلُّ ما فيه بالله .

ورأيت مكتوباً على عصا واحد .

كُلُّ ذَنْبٍ لَكَ مَغْفُو   رٌ سِوَىٰ الإِعْرَاضُ عَنِّى

فقلت :

إِنْ كُنْتُ أَعْرَضْتُ فَقَدْ تُبْتُ   عُدْتُ إِلَىٰ الْوَصْلِ كَمَا كُنْتُ
وَلَيْسَ لِى جُرْمٌ سِوَىٰ أَنَّنِى   نَظَرْتُ فِى الْحُبِّ فَعُوقِبْتُ

****

الحديث الرابع والعشرون :

أحبـــوا الله

أخبـرنا شيخنـا الإمام فـرد الوقـت، الباز الأشهب خـالي : أبو المكـارم منصـور، البطايحـي الربـاني، رضي الله عنـه، قـال : أنبأنا القـاضي أبـو الحسين محمد بن علي بن المهتدي، قال : أنبأنا أبو الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام، قال : أنبأنا أبـو الحسين أحمد بن محمد، قال : أنبأنا أبـو الحسن علي بن محمد الحـربي، قـال : أنبأنا أبـو عبد الله أحمـد بن علي، عن عبـد الله بن عباس رضي الله عنهمـا قـال : قال رسـول الله ﷺ : **«أَحِبُّوا ٱللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِه، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ ٱللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي»** [1] .

وبهذا الحديث الشريف نظام التصفية، فمن أدركها فقد أدرك الصفاء، والتحق بأهل الاصطفاء .

أي بني ! اعلم أن للصفاء ظهراً وبطناً، فأما ظهرها : فأن تصفِّيَ كليتك من أدناس النفس والخلق والدنيا، وأما بطنها : فأن تصفي كليتك من غبار رؤيـة الأعمـال، وطلب الأعـواض على الأعمال، والالتفـات منـه إلى مـا سواه .

روى أن النبي ﷺ قال : أسرَارَكم أسرَارَكم، فإنها عند الله بَواد .

ويقال : جديدك مع الله لا تُخْلِقْـه مع الناس، وصفاؤك مع الله لا تكدره مع الناس .

وقـال يحيى بن أبي كثير رحمـه الله تعـالى : دخلت مكة، فـاستقبلني

---

(١) رواه الترمذي في المناقب، والحاكم في فضائل أهل البيت .

عطاء بن أبي رباح، وسلم عليَّ ، ثم أقبل على الناس فقال: تسألوني عن العلم، وفيكم يحيىٰ بن أبي كثير ! .

قال: فتضرعت إلى الله أربعين يوماً، إلى أن يذهب حلاوة هذه المقالة من قلبي ! .

ويروى أن النبي ﷺ قال: ألا إن أوَاني الله في الأرض هي القلوب، فأحب الأواني إلى الله تعالى: أصفاها وأصلبها وأرقها .

معناه: أصفاها لله عند المراقبة، وأصلبها في دين الله عند المخاطبة، وأرقها على الإخوان عند الموافقة .

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى: لما اشتغل قلب مريم بحب ابنها، سمعت صوتاً: لما كان سرك صافياً لنا، كنا نرزقك في الشتاء والصيف، من غير واسطة، ولا شدة، ولا عناء .

فلما ميَّلْتِ سرك عني فلا يأتيك رزقك إلاَّ بشدة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله تعالى: اعلم أن العبد إذا لم يُصَفِّ وقته لله تعالى في إقامة العبودية، انقطع عن الله وهو لا يشعر؛ فمن اجتهد في صفاء معاملة الظاهر، أورثه الله صفاء معاملة الباطن .

ومعنى قوله: انقطع عن الله وهو لا يشعر. قول أبي يزيد رحمه الله تعالى: من ظن أنه بالحال يصل، فبالحال ينقطع، ومن طلب الأنس بالحال، فبالحال يستوحش .

قال أبو محمد الجريري رحمه الله تعالى: إنَّ الله تعالى حكم على أصفيائه وأحبابه، أن لا يخرجون من الدنيا إلاَّ وطوق العبودية في أعناقهم .

وبحق أقول: ما اشتغل أحد بغيره إلاَّ ضاع عمره، وذهبت عنه صفاوة الوقت؛ فمن أراد صفاوة الوقت، فليؤثر الله على شهوته .

وقيل لواحد: ما حقيقة صفاوة الوقت ؟.

فقال: تصفية الكلية، لخلّاق البرية، بوفاء صدق العبودية.

قال الأنطاكي رحمه الله تعالى: إن وجدت ريناً في قلبك فأدم الصيام، فإن وجدت ريناً فأقل الكلام، فإن وجدت ريناً، فاترك الآثام، فإن وجدت ريناً فأكثر البكاء والتضرع إلى الملك العلام.

ويقال: الجهل كله موت، إلا من يرزقه الله العلم؛ والعلم كله حجة، إلا من وفقه الله للعمل به؛ والعمل كله هباء منثور، إلا أن يكون صافياً لله؛ وأهل الصفاء على خطر عظيم، إلا أن يُسَلِّموا ذلك إلى الله تعالى بلا عيب.

ويجب على العبد أن ينظر في حال أكله وشربه، ولباسه وكلامه، وحركاته وإرادته: فيدع منها ما كدر، وليأخذ ما صفا؛ لأن صفاوة الأوقات على قَدْرِ صفاوة الأحوال.

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: إن لله عباداً، يبلغون في درجة الصفاء مقاماً تقع فيه فراستهم على سر الناس، فيعرفون السعداء من الأشقياء: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده.

وقيل لأبي عبد الله رحمه الله تعالى: ما فضل أهل الصفاء على غيرهم ؟.

قال: رفع الحجاب عنهم، واتهام الوشاة فيهم، وإفشاء الأسرار إليهم.

قيل: هل يكون لأهل الصفاء حلاوة العبادة ؟.

قال : أما قبل رؤية المِنَّة فنعم ، وأما قبل رؤية العبادة : فلا ، بلا تعليق .

وقيل لبعضهم : متى يعرف الرجل أنه من أهل الصفاء ؟ .

فقال : إذا ستر جميع المعاصي بستر التوبة ، وستر جميع الخيرات بذكر ستر المِنَّة ، وستر ما دون الله بستر الله تعالى .

حال أهل الصفاء :

وحكي أن بهلولاً كان لا يأخذ شيئاً من أحد ، وإنْ أكثر عليه الإلحاح ، فقيل له في ذلك ، فقال : أمرنا أن لا نأخذ بالواسطة ، لأن منها ذهاب الصفاء . قيل : وما الصفاء ؟ .

قال : طيران القلب بأجنحة الاشتياق لرب العالمين .

ويقال : أدنى أوصاف أهل الصفاء ، عيش القلب مع الله بلا علاقة ، ومن لم يعرف نفسه بالفقر والفاقة ، والعجز والضعف لم ينل صفوة اليقين .

وإذا كان العبد لله تعالى كأن لم يكن ، يكن الله تعالى له كما لم يزل .

وقال أبو سليمان رحمه الله تعالى :

طوبى لمن صحت له خطوة واحدة ، لا يريد بها إلا الله تعالى .

وقال الإمام معروف الكرخي رضي الله عنه : بينا أنا أسير في البادية ، لم يكن معي أحد من البشر، إذ نزل شخص من السماء ، فسألني : ما الصفاء؟ فقلت : صدق الوفاءِ ، فقال : صدقت ! .

ثم عرج وهو يقول : ﴿ يوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ ﴾ .

أما ترى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وضع قدماً واحداً بصدق الوفاء ، على صخرة صمَّاء ، فأمر الله تعالى أن اتخِذوا من مقام إبراهيم مصّلى ! .

[حقيقة الصفـــــاء] :

وحقيقـة الصفاء : التخلـق بخُلُق المصطفى ﷺ، والاقتداء بـأصحابـه أولي الصدق والوفاء ، والانقطاع إلى الملك الأعلى .

وقيل : حقيقة الصفاء ، طرح القلب على بساط الامتنان ، واستقامة السر مع الملك الديان .

وقيل : تصفية القلوب لعلام الغيوب .

وقيل : صـدق الافتقار، مع دوام الاضطـرار؛ وترك الاختيـار، مع حسن الانتظار.

وقيل : فناء الكليـة تحت كمال القـدرة ، وطيران الهمة بأجنحـة الشوق نحو رب العزة .

وقيل : هجرة السر إلى الله من المراتـب والدرجات ، والفرار إلى الله من المنازل والمقامات .

وقيل : هي مجـانبـة دواعي النفس ، ومتـابعة دواعي الـروح ، وإخمـاد صفات البشرية ، تحت صفات الربوبية .

*****

الحديث الخامس والعشرون :

الله يضاعف الصـــدقات

أخبرنا شيخنا القاضي العـدل، الثقة المقري الكبير الشيخ : أبو الفضل على الواسطي، رحمه الله رحمة واسعة، قال : أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن محمد الكاتب، قـال : أخبرنا أبو طالب محمد بن محمـد الغيلان، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي، قال : أخبرنا محمد بن غالب، قال : حدثني عبد الصمد بن ورقاء، عن عبد الله بن دينار، عن سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال :

« مَنْ تَصَـدَّقَ بِعِدْلِ مِنْ كَسْبِ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّـهُ إلاَّ الطَيِّبَ فَإِنَّ ٱللَّـه يَقْبَلُهَا بِيَمِينِـهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَـاحِبِهَا كَمَا يُـرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُـوَّهُ ، حَتَّىٰ تكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ [1]» .

حثَّ هـذا الحـديث الشـريـف على بـذل المعـروف، ونبـه على لـزوم الإخلاص فيه، وبشـر بعد الإخلاص بمضاعفته وقبولـه، وكل هذا انطوى في الإخلاص، وهـو نور العـارفين بالله، إذ الأعمـال بغير الإخـلاص كلها ظلمــة، وبـه تتنــور، وبـذلك ارتفعت همـم العـارفين في الأعمـــال إلى الإخلاص : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ ٱلدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ .

إلاَّ أن المتحققين بـالتصـوف، صفتْ سـرائرهم، وحسنت شعـائرهم؛ همهم ربهم، وَخُلُقُهُمْ سُنَّةُ نبيهم - ﷺ - عكسَ أهل المروق من أصحاب الدعوى .

أي بني ! إذا نظـرت في القوم الـذين ادَّعـوا التصوف اليـوم، رأيت أن

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه .

أكثرهم من الزنادقة، والحرورية، والمبتدعة !.

ورأيتهم أكثر النـاس جهلاً وحمقاً، وأشدهم مكراً وخـديعة، وأعظمهم عجبـاً وتطـاولاً، وأســوأهم ظنـاً بأهل الـزهـد والتقــوى، وأهل الصــدق والصفـــاء.

وعـلامـات أهل الصفـاء؛ أدق مـن أن يصفهـا واصف، وأعلى من أن تحتملها الأوهام.

علامات الصفاء الصوفي:

فمن علامة الصوفي: أن يصفو في أقواله، وأفعاله، وحركاته من أدناس آفات النفس، والْخَلْق، والدنيا.

وتصفو خواطره من غبار الإعراض عنه تعالى، والنظر منه إلى من سواه.

وأيضـاً من عـلاماتـه: أن يكـون مع النفس بـلا نَفْس، ومع الخلق بـلا خَلق، ومع القلب بـلا قلب، ومع الحـــال بـلا حـال، ومع الـوقت بـلا وقت.

ويكونَ مستقيمـاً علي بساط أمر الله، متـذللاً تحت جـلال عظمة الله، مستكفياً مستغنياً به عن غيره.

قلبه مضروب بسياط خوف القطيعة والهجران.

وسره مضروب بسياط خشية البعد والحرمان، نفسه منوَّرة بنور الخدمة، وقلبه منوَّر بنور المحبة، وسره منوَّر بنور المعرفة.

ومن علامته أيضاً: أن يكون فؤاده طائراً بأجنحة الشوق.

وأركانـه مستقيمة على طريق الحق بـالحق للحق، مع حسن الانتظار، وعلى غاية الانكسار، مقبلاً بالكلية على مليكه، مع ترك الالتفات منه إلى

ملكـه، مع الفـرار من المخلـوقين، لشـدة وجـدَانِـهِ حـلاوةَ الأُنس بـربِّ العالمين.

رجوعه إلى الحق، واعتمـاده على الحق، وقراره مع الحق، من غير أن يلتفت منه إلى الخلق.

وحشي القلب، سمـاوي الحـديث، ربـاني العلم، فـرداني الهمـة، روحاني العيش، نوراني القَدَر، وحداني المعنى.

جميع إرادته تحت إرادة المعبـود، شاكراً لله في السـر والإعلان، كي لا يقع في أبحـر الكفـران، ذاكراً لله بـالقلب واللسـان، في كل وقتٍ وأوان، كيلا يتيه في مفاوز النسيان.

يعلم أن المـولى يراه، ومن فـوق العُلىٰ يـرعاه، فهـو فانٍ تحت عظمـة نظره، متلاش بكليتـه تحت كمال قدرته، مستغرق صفاء أوقـاته في أبحر امتنانه، مع سقوط كل حلاوة، غير حلاوة محبة ربه.

مستقيم على صدق العبـودية، من غير رؤية العبوديـة، فارغ القلب عن الشغل بغيـر الله، مع الاتكال بـالقلب على الله، متواضع لأهل الإيمـان، قائم على بساط الأحزان، حتى يأتيه اليقين (الموت) بالعفو والرضوان.

لسـانه مثل قلبـه، يصـدق في جميع أقـواله وأفعـالـه، لا كما قـال الله تعالى: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ .

شاكر لقليل النعمـة، صابر على كثير الشـدة، راض بقضاء ربِّ العزة، دائم على احتراس القلب لله بالحجة.

لا يخاف دون الله، ولا يرجـو غير الله، ولا يريد إلاَّ الله؛ لِمَـا علم أنه لا مضـر ولا نـافع، ولا رافع ولا دافع، ولا معـزَّ ولا مُذِلَّ، إلاَّ اللّـهُ وحـده لا شريك له.

متابع لسُنَّة المصطفى ﷺ، وأخلاقه، ومذاهب أصحابه.

خائف من سوء العاقبة، مشتغل بالمقدّرِ إذا اشتغل الناس بالتقدير، وبالمدبِّر إذا اشتغلوا بالتدبير، جالس على بساط الخدمة مع الحياء، متكيء على سرير الفقر والفاقة، مشرف على غرف القرب والمشاهدة، شارب بكأس الأُنس والمحبة، يطيل صمته، ويكظم غيظه، ويغلب شهوته، ويفارق راحته، من غير أن يلتفت إلى معاملة قلبه.

فارغ من مصالح نفسه، تارك لجميع راحاته وشهواته، خائف من الوحشة بينه وبين حبيبه، يكون أحسن الناس للناس وأتقاهم، وأصدق الناس وأصفاهم، وأعقل الناس وأرعاهم، ينظر إلى الدنيا بعين الاعتبار، وإلى النفس بعين الاحتقار، وإلى الآخرة بعين الاستبشار، وإلى الرب بعين الافتخار.

في الاستقامة كالجبل الراسي، لا تحركه الرياح الهائجة، لا يطلب ما ليس له، ولا يهتم بما قُسِمَ له، فارغ عن خدمة المخلوقين، مشتقل بخدمة رب العالمين؛ لا يعرض عنه ببلواه، ولا يختار حبيباً سواه.

نفسه طاهرة من كل خطأ وزلة، وقلبه متبريء من كل سهو وغفلة، وسره من كل حول وقوة، بدون الله ـ سبحانه ـ لا يرضي.

طعامه طعام المرضى، وبكاؤه بكاء الثكلىٰ، لا يتوكل قلبه إلا عليه، ولا يسلم إلاَّ إليه، يشكر النعمة إلاَّ له، ولا يطلب الحاجة إلاَّ منه.

مستأنس بالله في جميع الأحوال، منقطع إليه في جميع الأعمال.

وَذِكْرُ اللَّهِ حديثهُ في جميع المقال، تارك اختياره إلى ذي الجلال.

نومه قليل، وحزنه طويل، وبدنه نحيل، وأنيسه الملك الجليل؛ حسبنا الله ونعم الوكيـــل.

****

الحديث السادس والعشـــرون :

صيـــــام الدهر

أخبرنا شيخنا العارف بـالله، خالي الشيخ : أبو بكر بن يحيى النجاري، الأنصاري الواسطي، رضي الله عنه، قال : حدثني الأستاذ أبو القاسم علي ابن أحمد البسري، قال : أنبأنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن مهدي، قال : أنبأنا محمد بن مخلد العطار، قال : أنبأنا محمد بن علي بن خلف، قال : أخبرنا عمرو بن عبد الغفار، عن حسن بن حُيي وسفيان الثوري، عن سعـد بن سعيد، أخي يحيـى بن سعيد، عن عمـر بن أيـوب، قال : قـال رسول الله ﷺ .

« مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتّاً مِنْ شَوَّال، كَانَ كَصِيَامِ ٱلدَّهْرِ »[1].

وسـر ذلك : استغـراق العبـد فـي أداء الفـرض، وانغمـاسـه في السُّنـة المحمدية، فإنها بركة الـوقت، وليس عند العارف أهم من استحصال بركة الوقت، بِفَرْضٍ أو سُنَّةٍ، أو جمع بينهما، وهناك منتهى الهمم، فإن السُّنة المحمدية روح العارف، بها يقوم، وبها يقعد، وهي منار ألبابِ العارفين، فإن مشيـد أركـانهـا، ورافع بنيـانهـا ﷺ لـم ينطق عن الهـوي؛ بل هـو جلجلة : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَـرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ولورّاثه العـارفين هذه الحصة، من بركة اتباعه؛ أرواحنا وأرواح العالمين فداه .

قلوب العارفين خزائن الله فى أرضه :

أي بني ! اعلم أن قلـوب أهل المعرفـة خزائن الله في أرضه، يضـع فيها ودائع سـره، ولطائف حكمتـه، وحقـائق محبتـه، وأنوار علمـه، وآيـات

(١) أخرجه الإمام مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم .

معـرفته، التى لا يطَلَّع عليهـا مَلَكٌ مقـرب، ولا نبي مرسل، ولا أحـد دون الله، بغير إذنه سبحانه.

فينبغي أن يكـون العـارف عـالمـاً بصـلاحـه وفسـاده، مستقيمـاً على معاملته، عارفاً بربحه وخسرانه، حافظاً له من مكابدة عدوه، مستعيناً بالله في ذلك كلـه، وأن لا يدع في قلبـه مكانـاً لغيره، فإن الله تعـالى إذا اطَّلَعَ على قلب، فرأى فيه غيره! مقته وخذله، وسلط عليه العدو.

ومعاملة القلوب لله خاصة، ومعاملة الأركان مختلطة، ومعاملة القلوب تُقبل بغير الأركـان، ومعاملـة الأركان لا تقبل بـدون القلب، ولا تستوجب الثـواب؛ فإن كان العبـد في معاملـة القلب مقصراً، وفي معـاملة الأركـان موفراً، حكم على توفير أحكامـه بتقصير قلبه، وإن كان في معاملة القلب موفراً، وفي معاملة الأركان مقصراً، حكم على تقصير أركانه بتوفير قلبه.

روي أن موسى عليه الصلاة والسلام: مرَّ بقوم من بني إسرائيل قد لبسوا المسـوح، وقـد جعلـوا التـراب على رؤوسهـم، ودمـوعهم منحـدرة على خدودهم.

فبكى عليهم رحمـة لهم! وقـال: إلَهي! أمـا تـرحم عبادك؟ أمـا تـرى حالهم؟.

فأوحى الله تعـالى إليه: يـا موسى! أُنظـر هل نفدت خـزائني، أوَ لستُ بأرحم الراحمين؛ كلا، ولكن أعلمهم بأني بذات الصدور خبير، يدعونني بقلوب خالية عني، مائلة إلى الدنيا.

وروي أنه ﷺ مـرَّ برجل ساجـد على صخرة، منـذ ثلاثمائة سنـة، كان يبكى ودموعـه تجري على الأوديـة، فوقف عليـه وبكى لبكائه، وقـال: يا إلَهي! أما ترحم عبدك.

فقال الله تعالى : لا أرحمه ، قال : ولِمَ يـا إلّهي؟ قال : لأن قلبه يستريح إلى غيري ، وكان له جبة يستتر بها من الحر والبرد ! .

وقـال النبي ﷺ «لا يستقيم عمل العبـد حتى يستقيم قلبـه ، ولا يستقيم قلبه حتى يسقيم لسانه» .

إذا فقد العبـــــد قلبه فقد ربه :

وقال النبـي عليه الصـلاة والسلام : « **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَـدِ مُضْغَـةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَـدُ كُلُّـهُ ، وإذا فسـدت فسـد الجسـد كلـه ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ** » .

وقـال الله تعالى لمـوسى عليـه الصـلاة والسلام : يـا مـوسى! قل لبني إسرائيل : أن لا يدخلـوا بيتاً من بيوتي إلا بقلوب وَجِلة ، وأبصـار خاشعة ، وأبدان نقية ، ونية صادقة .

قـال يحيى بن معاذ رحمـه الله تعالى : قلب المـؤمن مضغة جـوفانيـة ، حشوها جـوهرة ربانية ، حـولها روضة فردانيـة ، تحتها ساحة نـورانية ، والله تعالى نـاظر إليها في كل لحظـة بالرحمـة والشفقة ، ويحول بينهـا وبين ما يشغله عنه .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقيل : معاملة القلوب أمر شديد ، والثبات عليها أشد وأصعب .

قيل لبعض أهل المعرفة : عبدٌ فقدَ قلبه ، متى يجده ؟ .

قال : إذا نزل فيـه الحق ، قال : متى ينزل ؟ قال : إذا ارتحـل عنه ما دون الحق .

ومعاملة القلوب على عشر مدارج :

أولها : الخطرات ، ثم حديث النفس ، ثم الهم ، ثم الفكر، ثم الإرادة ، ثم الرضـا ، ثم الاختيار، ثم النية ، ثم العزيمـة ، ثم القصد؛ حتى يبلغ إلى عمل الظاهر.

فمن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب عند الخطرات، فهو على مدارج الصديقين.

ومن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب عند حديث النفس، فهو على مدارج المقربين.

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الهم، فهو على مدارج الأوابين.

ومن قام لله، على حفظ معاملة القلب عند الفكرة، فهو على مدارج المخلصين.

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الإرادة، فهو على مدارج المريدين.

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الاختيار، فهو على مدارج المتقين.

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند النية، فهو على مدارج الزاهدين.

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند العزم، فهو على مدارج المنيبين.

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند القصد، فهو على مدارج المجتهدين.

ومن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب على عمل الظاهر، فهو على مدارج العابدين، من عامة الموحِّدين.

وقال إسحاق بن إبراهيم رحمه الله تعالى: لأنْ تردد قلبك إلى الله تعالى

ذرة، خير لك من جميع ما طلعت عليه الشمس؛ وما من أحد صفا قلبه من أدناس الشهوات، وطهره من غبار الغفلات، ونقاه من كدورات الغوايات؛ إلا أطلعه الله على غاية الغايات.

وقال بكر بن عبد الله في معنى قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ قال: الذي يمشي ببدنه على الأرض، وقلبه معلق بالله تعالى.

وقيل لأبي عبد الله رحمه الله تعالى: ما القلب السليم ؟.

قال: قلب منقطع من علائق الدنيا، مملوء من حب المولى، لا يشكو من الشدائد والبلوى، ولا يهتك أستار الصيانة والتقوى.

ويقال: من لم يكن بينه وبين الله معاملة سرية كان مسيئاً وإن كان محسنا، ومن لا يرى أن الكونين بما فيهما يسير قدرته وسريع لحظته، لم ينل معاملة القلب.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: اعلم أن معاملة القلب هي: تجديد السر مع الانفراد به، وملاحظة القلب على دوام حفظ الأوقات، مع صدق الحال، من غير التفات منه إلى الوقت والحال.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن لله تعالى عباداً، تطير قلوبهم إلى الله اشتياقاً، لا يدركها البرق الخاطف.

ويروى أن النبي ﷺ قال: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة، ولا صيام، ولكن بحق وقر في قلبه.

إن الله تعالى لا يَرُدُّ القليلَ لقلته، ولا يقبل الكثير لكثرته؛ ولكن إنما يتقبل الله من المتقين.

ويقال: ليس على مقام الصدق، من تعلق قلبه بالمقام؛ ولكن الصادق

الصادق من تعلق قلبه برب المقام مجرداً، حتى لا يرى مع الله غير الله أحداً.

ويقال: إذا صارت المعاملة إلى القلوب، استراحت الأبدان.

ويقال: لا تكون معاملة القلب، إلا لمن له قلب صاف، ليس بساه؛ صحيح ليس بجريح؛ بصير ليس بضرير؛ فريد ليس بطريد؛ طالب ليس بهارب؛ قريب ليس بغريب؛ عاقل ليس بغافل؛ سماوي ليس بأرضي؛ عرشي ليس بوحشي.

تجـــريد القلب لله:

وقال ثابت النساج رحمه الله تعالى: قرأت القرآن سنين بالخوف، فلم أجد القلب.

ثم قرأته بالرجاء، فلم أجد القلب.

ثم قرأته بتجريد القلب عن كل ما دون الله تعالى، فعند ذلك وجدته، ورأيت عند وجوده: الولاية الكبرى، والعزة العظمىٰ، والمراتب العليا.

وقال الله تعالى في بعض الكتب: القلوب بيدي، والحب في خزائني؛ فلولا حبي لعبدي، ما قدر العبد أن يحبني؛ ولولا ذكري له في الأزل، ما قَدرَ أن يذكرني؛ ولولا إرادتي إياه في القِدَم، ما قدر العبد أن يريدني.

قيل: إن عارفاً رأى رجلاً يدور حول المسجد، فقال له: يا هذا! ما تطلب؟ قال: أطلب موضعاً خالياً أصلي فيه.

فقال: خَلِّ قلبك عما دون الله، وَصَلِّ في أي موضع شئت.

ويقال: بقَدْر إقبالك على الله، يكون قرب القلب منه، وما اطلع الله على قلب عبد فرأى فيه غيره إلاَّ عذبه الله به، وَوَكله إليهِ.

وقال يحيى بن معاذ ــ رحمه الله تعالى ـ: القلب إذا وضعته عند الدنيا خاب، وإذا وضعته عند العقبى ذاب، وإذا وضعته عند المولى طاب.

وقال: الدنيا خراب، وأخرب منها: قلب من يعمرها.

والآخرة دار عمران، وأعمر منها: قلب من يطلبها.

وقال: مفاوز الدنيا تقتطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقتطع بالقلوب.

وقال: خراب النفس من عمارة القلب، وعمارة النفس من خراب القلب.

سُئل واحد من أبناء القلوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال: قلبي يتكلم. قيل: مع مَنْ؟ قال: مع مُقَلِّب القلوب.

*****

الحديث السابع والعشرون :

أنت مع من تحب

أخبرنا الشيخ الجليل، العارف بالله، شيخنا : أبو الفضل علي الواسطي القرشي ـ يعرف بابن القاري ـ رضي الله عنه، قال : أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد، بن المظفر الداودي، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، قال : أنبأنا أبو عبد الله ابن يوسف الفربري، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال : حدثنا بشر بن خالد، قال : حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » (١) .

في هذا الحديث الشريف، من الإلزام بمحبة أحباب الله ورسول الله ﷺ، ما فيه بلاغ للموقنين، وهدى للمتقين، ونور للعارفين.

فإن من تدبر سر المعية، التي أفصح بها هذا النص الأشرف، انسلخ إلاَّ عن محبة الله تعالى، ومحبة من أحبه الله؛ وأحب الله .

وكذلك العارفون رضي الله عنهم، ومن العارفون؟ هم أهل القلوب المنيرة، أصحاب صفاء السريرة، والعمدة على القلوب.

أي بني ! اعلم أن الله تعالى ذكر في محكم كتابه للعباد : أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه، وقضاه وتقديره، وحكمه وتدبيره، ومشيئته في خلقه؛ وضرب الأمثال، وذكر آلاءه ونعماءه، ولطائف صنعه، وكمالَ قدرته، وعظيمَ ربوبيته. ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري، ومسلم وغيرهما.

أشهَدَ في هذه الآية جميعَ العباد، شرف مراتب أبناء القلوب، وبيَّن فضلهم على مَنْ دونهم.

قال بعض المفسرين: في معنى قوله تعالى: ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾: أي: قلب واثق بجميع ما ذكره الله سبحانه في كتابه، من الوعد والوعيد وغيرهما.

وقال بعضهم: لمن كان له عقل، يزجره عن جميع الضلالات والغوايات، في جميع الحالات.

وقال بعضهم: لمن كان له ذهنٌ، يَفِرُّ به عن الشرك والشك.

وقال بعضهم: لمن كان له يقين، يسقط عنه وثائق الغرور، في جميع الأمور، إلى أن يصل إلى الملك الغفور.

وقال بعضهم: لمن كان له سر، يتلاشى معه جميع أوصاف العبودية، تحت إشارة الربوبية، عند مشاهدة الحق.

وقال بعضهم: لمن كان له استقامة السر مع الحق، من غير التفات منه إلى ما سواه.

وقال بعضهم: لمن كان له قلب مفرد لتفرد الفرد.

وإن الله تعالى زين قلوب العارفين بزينة المعرفة، كرماً وامتناناً؛ وزين قلوب المريدين بالعظمة والهيبة، رحمة وإحساناً.

وحجب قلوب الغافلين بالجهل والغفلة، محنة وخذلاناً؛ وطبع علي قلوب الكافرين، بالإبعاد والنُكرة، طرداً وحرماناً.

قلــــوب الخلق:

والقلوب ثلاثة:

١ ـ قلب يطير في الدنيا حول الشهوات!.

٢ ـ وقلب يطير في العقبى حول الكرامات ! .
٣ ـ وقلب يطير في سدرة المنتهى حول الأُنس والمناجات ! .

فقلب معلق بالدنيا ، وقلب معلق بالعقبى ، وقلب معلق بالمولى .

وقلب حريق ، وقلب غريق ، وقلب سحيق .

وقلب منتظر للعطاء ؛ وقلب منتظر للرضاء ، وقلب منتظر للقاء .

وقلب مشروح ، وقلب مجروح ، وقلب مطروح .

وقلب منيب : وهو قلب آدم عليه الصلاة والسلام .

وسليم : وهو قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ومنير: وهو قلب «محمـد» عليه أفضل الصلاة والسلام .

*****

الحديث الثامن والعشرون :

سكـــون القلب إلى الله

أخبرنا شيخنا القـاضي الثقة، المقري الجليل الشيخ : أبو الفضل علي الواسطي القرشي، رحمه الله رحمة واسعـة، قال : أخبرني أبو الحسن عبد الـرحمن بن محمد الـداودي، قال : أخبـرني عبـد الله أحمد السـرخسي. قال : حدثني أبو عبد الله محمد الفربري، قال : حدثني أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخـاري، قال : حدثني إسحـاق بن إبراهيم : قال : أخبـرنا الحسين، عن زائدة، عن عبيـد الملك، عن مصعب بن سعـد، عن أبيـه قال : تعوذوا بكلمات، كان النبي ﷺ يتعوذ بهن :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ » (١) .

استعـاذ ﷺ من القـواطع عن الله تعـالى، فإن الجُبْنَ : مقعِـدٌ عن قـول الحق؛ والبخل : مقصـر عن طلب الحق؛ وأرذل العمر : صـارف عن بذل الهمة في الحـق؛ وفتنة الدنيـا : قاطعـة عن الحق؛ وعذاب القبـر : نتيجة أولئك، والعياذ بالله تعالى.

وفي مضمون هـذه الاستعاذة الشريفة المحمـدية، إرشاد بإعـلاء الهمة عن الجبن والبخـل، وحث على التجـرد إلى الله تعـالى، وهـذا بغيـة العارفين.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، يـا مصلح الصالحين، يا ولي المتقين، يا دليل المتحيرين، يا أنيس العارفين، يا أرحم الراحمين !.

(١) رواه الحاكم، عن ابن مسعـود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قـال : «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفـع، وقلب لا يخشع، ودعـاء لا يُسمع، ونفس لا تشبع، ومن الجـوع، فإنـه بئس الضجيع، ومن الخيانة، فإنها بئست البطانة، ومن الكسل، والبخل، والجبن، ومن الهرم، وأن أرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات».

الرضـــــا عن الله :

أي بني ! اعلم أن العبد إذا علم أن الله سبحانه حكيم فيما حكم ، وقدير عالم بما قضى ودبَّر؛ وعرف أنه جاهل بالمحبوب والمكروه ، رضي عن الله في حكمته وقضائه .

والرضا : هـو سكون القلب إلى الحكيـم ، وترك الاختيـار مع التسليم ، ولا شيء أشد على النفس من الـرضا بالقضـاء ، لأن الرضا بالقضـاء يكون على خلاف رضا النفس وهواها ، فطوبـى لعبد آثر رضا الله تعالى على رضا نفسه .

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام ، كان يقول في مناجاته :

إلَهي ! خصصتني بالكلام ، ولـم تكلم بشراً قبلي ، فدلني على عمل أنال به رضاك .

فقال الله تعالى : يا موسى ! رضائي عنك ، رضاكَ بقضائي .

وقال الـداراني رحمه الله تعـالى : أرجو أن أكـون قد أعطيت من الـرضا طرفاً ، وذلك أن الله تعالى لو أدخلني النار ، لكنت بذلك راضياً ، وأن أحق الناس بالرضا : أهل المعرفة ؛ وهو باب الله الأعظم .

وروي في بعض الكتب : أن جبريـل عليه الصلاة والسـلام ، كان يهبط إلى الأرض ، فرأى رجلاً عليه أثر السكينة .

فقال : يارب ! ما أحسن هذا الرجل ! .

فقال الله تعالى : يا جبريل ! أُنظر اسمه في اللوح في أسماء أهل النار.

فقال : إلَهي ! ما هذا ؟ .

فقال : يـا جبريل ! إني لا أُسأل عمَّا أفعل ، وأنـه لا يبلغ أحد من خلقي علمي ، إلا بما شئت .

فقال جبـريل: يارب! أتأذن لـي أن أخبره بما رأيت؟ قـال: لك الإذن. فهبط جبريل وأخبره بحاله، فخر الرجل ساجداً.

وكان يقـول: لك الحمد يا مـولاي! على قضائك وقَدَرِك، حمـداً يعلو حمد الحامدين، ويزيد على شكر الشاكرين.

قال: فما زال يحمد الله تعالى، حتى ظن جبريل أنه لم يسمع ما قال!.

فقال: يا عبد الله! وهل سمعتَ ما قلتُ لك؟.

قال: نعم، أخبرتني أنك وجدتَ اسمي بين أسماء أهل النار، في اللوح المحفوظ.

قال: فما هذا الحمد والشكر؟.

قال: سبحـان الله يا جبـريل! إن الله تعالى قـد قضى مع كمـال علمه، وسعة رحمته وحلمه، ولطائف ربوبيته، وحقائق حكمته، فمن أنا حتى لا أرضى؟ تبارك الله ربي؛ ثم خرَّ ساجداً، وأخذ في التسبيح والتحميد.

قال: فرجع جبريل إلى الله.

فقال الله تعالى: ارجع إلى اللوح المحفوظ، وانظر ماذا ترى؟ فرجع فإذا اسمه في أسماء أهل الجنـة. فقال: يا جبريل! هـو ما ترى، إني لا أُسأل عما أفعل.

فقـال جبـريل: إلٓهي! ائذن لي حتى أخبـره: بمـا رأيت. فقـال: لك الإذن.

قال: فهبط جبريل فأخبره بما رأى.

قال: لك الحمد يا سيدي ومـولاي! على قضائك وقدرك، حمداً يعلو حمد الحامدين، ويزيد على شكر الشاكرين.

فرجع جبريل متعجباً، من كمال رضاه عن الله، بكل ما حكم له!.

وكـذلك روي : أن الله تعالى أوحى إلـى نبي من أنبيائه : أنْ قُلْ لعبـدي فلان ابن فلان إنك من أهل النار؛ فلما بلَّغ إليه الرسالة ، حمِدَ الله تعالى .

وقال : الحمد لله على ما قضى ، فالأمرُ أمرهُ ، والحُكْمُ حُكْمُه .

فقال الله تعالى لنبيه : اِلْحَقْ به ثـانياً ، وأخبره بأني قد غفرتُ لك ، حيث رضيتَ بقضائي .

فُبلِّغَ الرسالة ؛ فشهق الرجل شهقة وخرَّ ميتاً .

واعلم أن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه :

١ ـ قضاء النعمة ؛ فعلى العبد فيه الرضا والشكر .

٢ ـ والثاني : قضاء الشدة : فعلى العبد فيه الرضا والصبر .

٣ ـ والثالث : قضاء الطاعة ، فعلى العبـد فيه الرضا وذكر المِنَّة ، والقيام بالواجب إلى الموت .

٤ ـ الرابع : قضاء المعصية ، فعلى العبد فيه الرضا عن الله والتوبة .

وسُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه : عن القضاء والقدر ؟ .

فقـال : ليلٌ مظلم ، وبحرٌ عميق ، وسـرُّ الله الأعظم ؛ فمن رضي به فلـه الرضا ، ومن سخط فله السخط ! .

وروي أنه لما وضع المنشار ، على رأس زكريا عليه الصلاة والسلام ، همَّ أن يستغيث بالله تعالى ، فأوحى الله إليه : يا زكريا ! . إمَّا أن ترضىٰ بحكمي لك ، وإمـا أن أخـرب الأرض ، وأهلكَ من عليهـا . فسكـت حتى قُطع نصفين .

وحكي أن رابعة البصـرية ـ رحمها الله تعـالى ـ مرضت ، فقيل لهـا : أما ندعو لك طبيباً ؟ .

فقالت: مَنْ قضىٰ عليَّ؟ قالوا: اللَّـهُ تعالى. قالت: أوَ مثلي من يرد قضاء سيده؟!.

ومرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقيل له: أما ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني. قيل: وما قال؟ فقال: قال: إني فعَّالٌ لما أريد.

شكىٰ نبيٌّ من الأنبياء بعض ما ناله من المكروه، فأوْحَىٰ اللَّـهُ إليه: كم تشكوني، ولستُ أهل ذم ولا شكوى! فهكذا كان بدء شأنك في علمي، فَلِمَ تسخط؟ أفتحب أن أعيد الدنيا من أجلك! أو أبدل اللوح بسببك! فأقضي ما يسرك كما تريد، لا كما أريد، ويكون ما تحب دون ما أحب، فبعزتي حلفت: لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى، لأسلبنك ثوب النبوة، ولأُوردَنك النار ولا أبالي.

قال بعض الحكماء: ليس العجب ممن ابتُليَ فصبر؛ إنما العجب ممن ابتلي فرضي!.

قيل لعبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: أي الرجلين أفضل: رجل أحب البقاء ليطيع، أو رجل أحب الخروج شوقاً إليه؟.

فقال: لا هذا ولا ذاك؛ ولكن رجل فوَّض أمره إلى الله، وقام على قدم الصدق في الرضا، فإن أبقاه أحب ذلك، وإن أخرجه أحب ذلك؛ فهذه منازل الرضا عنه، وخُلُقُ العارف معه.

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله.

وقال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: إن لله عباداً، يستحيون من الصبر، ويسلكون مسلك الرضا؛ وإن له عباداً، لو يعلمون من أين يأتي القدر، لا ستقبلوه حباً ورضا!.

وفي الخبر: إن أول ما كتب الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ:

لا إلَه إلاَّ الله ، محمدٌ رسول الله ، من استسلم لقضائي ، وصبر على بلائي ، وشكر لنعمائي ، كتبته صدِّيقاً ، وبعثته يوم القيامة مع الصدِّيقين .

ومن لم يـرض بقضائي ، ولم يصبـر على بلائي ، ولم يشكـر نعمائي ، فليختر رباً سوائي ! .

يقول قائلهم رضي الله عنهم : يا نفس ! إني أسلمتك إلى ربك ، على أنه إن شاء جوَّعك ، وإن شاء أشبعك ؛ وإن شاء أعزك ، وإن شاء أذلك ؛ وإن شاء أحياك ، وإن شاء أماتك .

وهو أغنى وأولى بكِ منك ؛ وأنت بـالكلية له يـا نفس ! فما لك والحكم على من له الحكم والخلق والأمر ؟ ! .

وقيل ليحيى بن معـاذ الـرازي ـ رحمـه الله تعـالى ــ : متى يطيب عيش المؤمن ؟ .

قال : إذا رضي عن الله تعالى ، بكل ما قضى وقدَّر ، وحكم ودبَّر .

وقيل له : متى يكون العبد راضياً عنه ؟ .

قـال : إذا قـال العبد لـربـه : إلَهي ! إنْ أعطيتني شكـرتُ ، وإن منعتني رضيتُ ، وإن دعوتني أجبتُ ، وإن تركتني عَبَدْتُ .

والزهد عشرة أجزاء ؛ وأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع .

والورع عشرة أجزاء ؛ وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين .

واليقين عشرة أجزاء ؛ وأعلى درجة اليقين أدنى درجـة الرضا ، لأن الرضا أعلى درجة العبودية .

وإن الله سبحـانـه جعل الـرَّوْح والـراحـة فـي الـرضـا ، وجعل الهمَّ في السخط .

وحكي أن عطية الحمصي رحمه الله تعالى قال: إن والدي قال لإبراهيم ابن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ: يا أبا إسحاق! لو كتبتَ من هذا الحديث كما كتبنا.

فقال له: اشتغلتُ بثلاثة أجزاء، فإن فرغتُ منها فعلتُ ما تقول.

قال: وما هي؟ قال: التوكل على الله فيما تكفل به من الرزق، وإخلاص العمل لله، والرضا بقضاء الله.

فأما التوكل والإخلاص، فقد فرغت منهما بعون الله، وأما الرضا بقضاء الله، فإني منه في شغل شاغل.

قال: فبكى والدي بكاء شديداً، وقال: ما أبعدنا عما أنت فيه! هل يكون فوق الرضا منزلة نقدر أن نقول فيها شيئاً؟!.

قال محمد بن واسع رحمه الله تعالى: إني لا أغبط إلاَّ من أصبح وليس له غداء ولا عشاء، وهو عن الله تعالى راض.

قيل لسفيان الثوري رضي الله عنه: متى يكون العبد عن الله راضياً؟.

قال: إذا سرته المصيبة، كما سرته النعمة!.

وقال رجل عند الإمام الحسين رضي الله عنه: إن أبا ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ كان يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة.

فقال: رحم الله أبا ذر! أمّا أنا فأقول: من رضي بحسن اختيار الله تعالى، لم يتمنَّ غير ما اختاره الله له.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: طلبت العلم فلم أسترح، ثم طلبت العمل فلم أسترح، فرضيت عن الله، فغرقت في الراحة.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ليس الشأن في أكل خبز الشعير، ولبس

الصوف، لكن الشأن في الرضا عن الله تعالى.

سَيَكُونُ الَّذِي قَضَىٰ ... كَرِهَ الْعَبْدُ أَمْ رَضِي
لَيْسَ هٰذَا يَدُومُ؛ بَلْ ... كُلُّ هٰذَا سَيَنْقَضِي

وكان مكتوباً على سيف عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

قَدْ قَضَىٰ فِيكَ حُكْمُهُ ... فَانْقَضَىٰ مَا يُرِيدُهُ
فَأَرِدْ مَا يَكُونُ إِنْ ... لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُهُ
أَيَّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أَفِرْ ... يَوْمَ لَا يُقْدَرُ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ
يَوْمَ لَا يُقْدَرُ لَا يَأْتِي بِهِ ... وَمِنَ الْمَقْدُورِ مَا يُنْجِي الْحَذَرْ

*****

الحديث التاسع والعشرون :

كلمة التوحيـــد

أخبرني خالي وسيدي : أبو المكارم منصور الرباني ، البطايحي الأنصاري الواسطي ، رضي الله عنه ، قال : حدثني السيد الشريف حسن بن عسلة الرفاعي ـ برواق أبي ، في أمِّ عَبيدة ـ قال : حدثني النقيب السيد يحيى الرفاعي ، قال : حدثني أبي السيد ثابت ، قال : حدثني أبي السيد على الحازم الرفاعي ، قال : حدثني أبي السيد على أبو الفضائل ، قال : حدثني أبي السيد الكبير : رفاعة الحسن ، المكي ، الحسيني ـ نزيل إشبيلية ـ قال : حدثني أبي السيد محمد أبي القاسم ، عن أبيه السيد الحسن القاسم ، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمن الرضي المحدِّث القطيعي ، عن أبيه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيد موسى ، عن أبيه الأمير السيد إبراهيم المرتضى ، عن أخيه الإمام على الرضا ، عن أبيه الإمام موسى الكاظم ، عن أبيه الإمام جعفر الصادق ، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام على زين العابدين ، عن أبيه الإمام الحسين ـ الشهيد بكربلاء ـ عن أبيه أمير المؤمنين على المرتضى ، عن ابن عمه سيد المرسلين ، وأشرف المخلوقين ، نبينا محمد المصطفى ﷺ أنه قال : حدثني جبريل عليه الصلاة والسلام ، قال : حدثني ربُّ العزة سبحانه وتعالى قال :

« كَلِمَـةُ لَا إِلَـهَ إِلَّا ٱللَّـهُ حِصْنِي ، فَمَنْ قَـالَهَـا دَخَلَ حِصْنِي ، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنى أَمِنَ مِنْ عَذَابِي » .

هذا الحديث القدسي ، الذى وصل إلينا بالسند النبوى ، فيه من إعظام

شأن كلمة التوحيد، ما يزيد العبد إيمانًا، ويملؤه عرفانًا، ويلزمه بالمداومة على الذكر بهذه الكلمة، التى هى روح التوحيد، وما على قائلها بعد الإيمان بمبلِّغها ﷺ من بأس.

وكونها آخذة بالعبد إلى الافتقار إلى الله تعالى، والانقهار تحت عظمة فردانيته، فلذلك صارت حصنًا للعبد، بإذن الله تعالى.

[الغنى بالله وحده] :

أى بنى ! اعلم أن الغِنى والفقر صفتان: صفة لله، وصفة للعبد، فصفة الفقر للعبد، وهو صفة مدح، كما أن صفة الغنى لله، وهو صفة مدح.

والفقر بالحقيقة: صفة العبد، إذ لا يشوبه غنى.

والغنى بالحقيقة: صفة الربِّ، إذ لا يشوبه فقر.

وإنَّ أشرف صفات العبد: افتقاره إلى الله تعالى فى كل شىء كما أن أشرف صفات الرب: استغناؤه عن العبد فى كل شىء.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

واعلم أن الافتقار إلى الله مقسوم: على النفس، والروح، والقلب، والسر.

ففقر النفس إلى الله تعالى يكون على سبيل القرب والرضاء.

وفقر السر إلى الله تعالى على سبيل المشاهدة واللقاء.

فكلمارأى العبدُ نفسه متحيرة، على باب عهده ووفائه، رجع بالافتقار إلى باب عفوه.

وكلمـا رأى روحه متحيـرة، على باب وده ومحبتـه، رجع بالافتقـار إلى باب عنايته.

ومن حقيقة الافتقـار، الاستكفاء بـالكافى، وطـرح النفس السقيمة بين يدى المعافى.

وأيضًـا حقيقتــه: انتظــار السَّبب من المسبِّـبِ، مع رؤيــة السَّبَبِ، والاشتغال بالمسبِّبِ، مع نسيان السَّبَبِ.

وأيضًا: من حقيقتـه دوام التبصيص والاعتذار، بلسان صـدق الافتقار، مع غاية الانكسار.

ومن حقيقته: تخليص الأسـرار من رؤية الأعمال، وتـرك الاعتماد على حسن الحال.

ومن حقيقته: أن لا ينصرف العبد عنه بخلقه ولا بملكه.

قيل لأبى عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ:

متى يكون العبد غنيًا محتاجًا، وهو فى غناه وحاجته محمود؟.

قال: إذا كان غناه بالله عن خلقه، وحاجته إلى ربه.

قال الشيخ أبو بكر الواسطى رحمه الله تعالى: إن العبد لا يعرف الله حق معرفته، حتى لا يعرف الفاقة الكبـرى، قيل: وما الفاقة الكبرى؟ قال: أن يعلم أنه لم يهتد إلى ربه إلاَّ به، ولا ينجو من سخطه إلا به.

ويقال: الافتقار لواء أهل الولاية.

ويقال: الافتقار طرح النفس بين يدى الربِّ، كالصبى الرضيع بين يدى الأم.

ويقال: الافتقـار فراغة فى رعـاية، ورعايـة فى ولاية، وولاية فى عنـاية، وعناية فى هداية.

فمن لا فراغـة له، لا رعايـة له، ومن لا رعـاية له، لا ولايـة له، ومن لا ولاية له، لا عناية له، ومن لا عناية له، لا هداية له.

* أى بنى ! اعلم أن الخلق بأسرهم فقـراء، محتاجـون إلى الله تعالى، أسراء تحت مشيئته، ضعفاء تحت علمه وقدرته، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم: نفعاً ولا ضراً، ولا ذُلاً ولا عزاً، ولا موتاً ولا حياة.

منصوبـون بين سهام النعمة والـرخاء، مـوقوفون بين القطيعـة والشقاء، مستورة عنهم خواتيمهم، لهم الخوف والرجـاء، والفقر والدعاء، والتضرع والبكاء.

فما أفقر مَنْ هذه صفته ؟ وما أضعف من هذه حالته ؟!.

واعلم أن الافتقار أَجَلُّ مـراتب المحبين، وأرفع منازل المنيبين، وأزلف حالات المريدين، وأعظم آلات الأوابين، وأجـلُّ مقامات التائبين، وأعلى وسائل المقربين.

وهو أصل العبودية، وصـدر الإخلاص، ورأس التقوى، ومخُّ الصدق، وأساس الهدى.

فمن أراد أن يدخل فى عصبة أهل الافتقار، فينبغى أن لا يهتم بمصلحة نفسه وعيـاله، وأن يتملق بين يـدى الله تعالى، وأن يكـون آيساً ممـا سوى الله، مع الافتقار إلى الله.

كرجل يكون فى بئر مظلم، ورأس البئـر مسدود، وأثره مستور، وليس له فى البئر مؤنس، ولا للخلق على رأس البئر ممر !.

فهل يكون رجاؤه، وافتقاره إلى أحد دون مولاه ؟ ! .

وحكى أن رجلاً من الصالحين، وقع فى بئر فى البادية - وكان ضريراً - فمرت على رأس البئر قافلة، فناداهم الرجل من قعر البئر، فهتف هاتف : أتستغيث بغيرى، وأنا غياث المستغيثين ! .

قال : فسكت الرجل، فإذا أهل القافلة سدوا رأس البئر، وأرادوا أن يخفوه، كى لا يقع فيها أحد، فصار الرجل آيساً من نفسه، وانقطع رجاؤه عن الخلق، ثم قال :

إلٰهى ! الآنَ لم يبق لى غيرك، وأنا فقير إليك، فسلط الله أسداً حتى فتح رأس البئر، وهبط فيه، فأخذ الرجل بذنب الأسد، فرفعه إلى رأس البئر، فنودى من فوقه : لا تقطع قلبك عمن ينجيك، بتلفٍ مِنْ تَلَفٍ ! .

واعلم أن الله تعالى وضع تحت قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : كمال وفاء صدق العبودية، ثم علم كمال ضعف العبد وعجزه، فأعطاه كلمة أخرى، وجمع له خير الدارين، وهو قوله تعالى : ﴿ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

فكل حق لله تعالى على العبد تحت قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

وكل فقر للعبد إلى الله تعالى تحت قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وقيل : إن أعرابياً وقف بالموقف فقال :

إلٰهى ! إليك خرجتُ، وأنت أخرجتنى، ولك وقفتُ، وأنت أوقفتنى، وقد عصيتُ أمرك، وأنت خذلتنى، ومع ذلك لا عذر لى ولا حُجَّة، فإن رحمتنى وعفوت عنى، فأنت أهل الإحسان، ولا فقير لك أفقر منى، يا سيدى ويا مولاى ! .

واعلم أن الله تعالى كلف العباد صدق الافتقار، كيلا يتجاوزوا عن حد

العبـوديـة، إلى حـد الـربــوبيـة، ومن الإرادات العقليـة، إلى الإرادادت الهـوائيـة، ومن الصفـاوة الـروحيــة، إلى الكـدورة النفسيـة، ومن الهمم العلوية، إلى الهمم السفلية.

قال الله تعالى لنبيه الأعظم عليه الصلاة والسلام:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىء ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾[2] وقال: ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ وقال: ﴿ أ لا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾.

نعم، صلاح العبد بالافتقار، نعم، الاستعـانة بالمستعان، نعم، سبب الوصول إلى طريق الهداية، واللحوق بأهل الولاية: الافتقار.

---

(١) آل عمران: ١٢٨.

(٢) آل عمران: ١٥٤.

طهارة القلب والقالب

أخبرنا الشيخ الثقة، العارف بالله تعالى، خالى : أبو بكر بن يحيى النجارى، الأنصارى الواسطى، رضى الله عنه، قال : أخبرنا أبو غالب محمد بن عبد الواحد القزاز، قال : أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكى، قال : أخبرنا إسحاق بن سعيد، قال : أخبرنا محمد بن هارون، قال : أنبأنا أبو آمنة محمد بن إبراهيم، قال : أخبرنا محمد بن سابق، قال : أخبرنا إبراهيم بن طهمان، عن منصور، عن نافع، عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِذَا رَاحَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ » (١) .

هذا الحديث الشريف، فيه من إعظام مناجاة الله الغاية ، فإن العبد إذا صلَّى ناجى ربه، سيما فى يوم الجمعة ومشهدها، فإنه من أعظم مشاهد الحضرة.

[حقيقة الاغتسال] :

والاغتسال عبارة عن غسل القلب والقالب من الوجودات هذا مع ما فيه من فضيلة التطهر الشرعى، وهذا سر من أسرار الاغتسال، ولم يكن من حكم شرعى، إلاَّ وفيه من الأسرار الباطنة والظاهرة، ما تَحار له العقول ! .

[تفويض الأمر لله] :

أى بنى ! اعلم أن من نظر فى حسن تدبير الله تعالى، ولطائف صنعه

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

وكمال قـدرته فى كل شىء، علم أنـه تعالى قائم على نفسـه بما كسبت، وأنَّ نواصـى العباد بيده، يقلبهم كيـف يشاء، وأن سعادتهم وشقـاوتهم فى ماضى حكمته، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه.

فمتى تحقق ذلك: اعتصم بالله، واستسلم له، وفوَّض الكلية إليه، وقام بقدم الاضطرار بيـن يديه، وبقى بلا حول ولا قـوة، ولا اختيار ولا تعليق، ولا تدبير ولا سؤال.

فإن راحة الدارين وسرورهما فى الاعتصام بالله.

وهمومهما فى الاعتصام بغير الله، ورؤية الحول والقوة بالنفس ! ألا ترى قول الله تعالى، لنبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نفعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ ٱللَّهُ ﴾.

ومعـاملة الله تعـالى مع موسى عليـه الصلاة والسـلام فى التيه، مكـافأة لقوله: ﴿ لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نفْسِى وَأَخِى ﴾.

وقيل فى معنى قولـه تعالى: ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ أى: اخلع عـن قلبك أهلك، وولدك، وكل ما سوى الله.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوْسىٰ * قال: هِيَ عَصَايَ ﴾.

أضافهـا إلى نفسه، قال: ما تصنع بهـا ؟ قال: ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ فقال له: ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾.

قال الله تعالى: يا موسى ! هـذه التى قلت: أتوكأ عليها، صارت عدوة لك ! لتعليق قلبك بغيرى.

فرجع موسى بقلبه إلى الله تعالى، فلما علم الله ذلك منه: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ﴾.

وقال لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

[الاعتصام بالله] :

يقول الله تعالى : ما من عبد نزلت به بلية ، فاعتصم بمخلوق دونى ، إلاَّ قطعتُ أسباب السماء من يديه ، ووكَلْتُه إلى نفسه ! .

وما من عبد نزلت به بلية ، فاعتصم بى دون خلقى ، إلاَّ أعطيتهُ قبل أن يسألنى ، واستجبت له قبل أن يدعونى .

وبلغنا أن الله ـ تعالى ، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام :

وعزتى وجلالى ، وعظمتى وارتفاعى فوق خلقى ، لا يعتصم عبد من عبيدى بى دون خلقى ، فأعلمَ ذلك من قلبه ، فيكيده السٰموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له من ذلك مخرجاً .

وعزتى وجلالى ، وعظمتى وارتفاعى فوق خلقى ، لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ، فأعلم ذلك من قلبه ، إلاَّ قطعتُ عنه الأسباب ، ثم لا أبالى فى أى واد أهلكته ، وأملأ قلبه شغلاً ، وحرصاً ، وأملاً ، لا يبلغه أبداً ! .

وفى الخبر: من اعتصم بالله واستعان به ، أحوج الله إليه الناس ، وأنطقه بالحكمة ، وجعله من ملوك الدارين .

ومن اعتصم بمخلوق دونه ، ووكل إليه قلبه ، عذَّبه الله ، وقطع عنه أسباب الدنيا والآخرة ! .

وروى أيضًا : تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، وأقبلوا إلى الله بقلوبكم ، واعتصموا به فى جميع أموركم ، لأن العبد إذا أقبل إلى الله

بقلبه ، أقبل الله بقلوب العباد إليه ، ومن يعتصم بالله كفاه الله كل مؤنة .

قيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى : متى يكون الرجل معتصماً بالله؟ .

قال : إذا قطع قلبه عن كل علاقة ، موجودة ومفقودة ، ورضى بالله وكيلاً .

وروى أن الله تعالى ، قال لداود عليه الصلاة والسلام : ما يتعبد المتعبدون ولا يتقرب المتقربون بشىء ، أبلغَ عندى من الاعتصام والتسليم .

وقال عامر بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ لأحد العارفين : أدعُ الله لى ، قال : لقد استعنتَ بمن هو أعجز منك ! أطع الله تعالى ، واعتصم به ، يُعطك أعظم ما يعطى السائلين .

وقال : فيما أنزل على موسى عليه الصلاة والسلام : إن أردت أن تكون قائداً لأهل الدنيا ، وسيدًا فى المنظر الأعلى ، فكن مستسلماً لأمرى ، راضياً بحكمى .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : إنى لأستحيى من الله أن أقول : إنى معتصم بالله ، لأن من اعتصم بالله لا يخافُ مَنْ دُونه ، ولا يرجو غيره ، ويقطع قلبه عن علائقه فى الدارين .

وقيل فى معنى قوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ أى : نحن عبيد الله وإماؤه ، نتقلب فى مشيئته وقضائه ، ونواصى العباد بيده ـ ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ بالرضا عنه ، والتسليم له ، والاعتصام به ، والتفويض إليه .

وروى أن الله تعالى ، قال لموسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ اِذْهَبْ إِلَىٰ فِرعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ .

فقال: يا رب! أهلي وغنمي.

قال الله تعالى: إذا وجدتني فأي شيء تصنع بغيري؟ يا موسى! اذهب واعتصم، واستسلم لي، وفوِّض الأمور إليَّ، فإني جعلت الذئب راعياً لغنمك، والملائكة حافظين لأهلك.

يا موسى! مَنْ أنجاك من اليمِّ حين ألقتك أمك فيه؟ ومَنْ ردَّك إلى أُمِّك بعده؟ ومن أنجاك من عدوك فرعون حين قتلتَ نفساً؟ ومن أنجاك من المفازة حين فررت من فرعون؟.

وهو يقول في ذلك كله: أنت، أنت.

واعلم أن من اعتصم بغيره، أو بشيء دونه فهو مخذول، خارج من حد العبودية، لأن حد العبودية: ترك الاختيار إلى الجبار.

قال الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ وقال: ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ، مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وقال: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضرٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّه لَنَا ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾.

[دعائم العبودية]:

واعلم أن العبودية مبنية على عشر خصال:

١ ـ الاعتصام بالله في كل شيء.

٢ ـ والرضا عن الله في كل شيء.

٣ ـ والرجوع إليه في كل شيء.

٤ ـ والفقر إلى الله في كل شيء.

٥ ـ والإنابة إلى الله فى كل شىء .

٦ ـ والصبر مع الله فى كل شىء .

٧ ـ والانقطاع إلى الله فى كل شىء .

٨ ـ والاستقامة بالله فى كل شىء .

٩ ـ والتفويض إلى الله فى كل شىء .

١٠ ـ والتسليم له فى كل شىء .

واعلم أن التسليم والاستسلام، شعبتان من شعب الإيمان والمعرفة .

التسليم : هو تسليم الكلية إلى السلام، بالسلامة بلا تخليط .

والاستسلام : هو أن يستسلم راضياً بجميع ما ينزل عليه منه .

******

الحديث الحادى والثلاثون :

أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟!

أخبرنا شيخنا الشيخ الجليل : أبو الفضل على القارى، القرشى الواسطى رضى الله عنه، قال : أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودى، قال : أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسى، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، قال : حدثنا صدقة بن الفضل، قال : أخبرنا ابن عيينة، قال : حدثنا زياد ـ هو ابن علافة ـ أنه سمع المغيرة يقول :

قام النبى ﷺ حتى تورَّمت قدماهُ، فقيل له : غفرَ اللَّهُ لكَ ما تقدمَ من ذنبكَ وما تأخر، قال : « **أفلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟ !** »[1].

فى هذا الحديث الشريف، من الالزام بالقيام بواجب العبودية، غاية الغاية عند من يعقل، فإن السيد الأعظم، والكنز المطلسم ﷺ، حالة كونه سر الوجودات، وسبب الموجودات، والبرزخ الوسط بين الخلق والخالق، قد فعل فى مقام عبديته ما تورم له قدماه الشريفان ! .

فأين نحن ؟ هات أيها العارف ! ابذل مهجتك اتباعاً لهذا الرسول العظيم ﷺ، وامحقْ كُلَّكَ فى اليوم والليلة ألف مرة، وأنت بعدها مقصر، العبودية وصف العارف المحض .

أى بنى ! قد ذكرَ الله تعالى فى كتب الأنبياء نعتَ الأصفياء، يقول الله

(١) رواه البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه .

تعالى: عبـدى ! بى وجـدتنى، وبى وقع بينى وبينك عقـد المحبـة، وبى صـرت من أهل خـدمتى، وبى تعـرفنى، وبى تـذكـرنى وتثنى علىَّ، وبى تتلذذ بذكرى، وبى قصـدتَ صحبتى، وبى قدرتَ أن تنظر فى الآخرة إلى وجهى.

عبـــدى ! نفسك لـى، وروحك لى، وقلبـك لى، وكليتك لـى، فإن أعطيتنى الكُلَّ أعطيتك الكُلَّ، وكنت لك مع الكلِّ.

وفى الخبر: أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام:

من الذى دعانـى فقطعت رجاءه؟ ومن الذى قرع بابى فلـم يُفْتَحْ له؟ أنا الذى جعلت آمال خلقى بى متصلة، وعندى مدخرة.

يا داود ! ما لعبدى يُعرِضُ عنى ؟ وأنا أقول: إلىَّ.

يـا داود ! أنا محل الآمـال، أنا الـذى جعلتُ طيـران قلوب المشتـاقين نحوى، وجعلتها فى الأرض مواضع نظرى، وأطلقتهـا إلىَّ حتى تزداد شوقاً إلىَّ، وقرباً منى.

يا داود ! بشر أوليائى وأحبائى، بأنى كل ساعة أريهم كرامتى، ولطائف صنعى، وحسن امتنـانى عليهم، حتى لا ينسونى، ولا يميلـوا إلى غيرى، وشَـــوقتهم إلىَّ، حتـى لا يصبـروا عنى، وفتحـت لهم أبـــواب أُنسى، واستجبت لهم قبل أن يدعونى، وأعطيتهم قبل أن يسألونى.

يـا داود ! فـوعزتى وجـلالى، لأُقعـدنهم فى الفـردوس، ولأمكننهم من رؤيتى، حتى أرضى عنهم، ويرضَوْا عنى.

يـــا داود ! أخبــر أهلَ الأرض بأنى حبيب لمن أحبنـى، وجليس لمن جـالسنى، ومؤنس لمن أَنسَ بى، وصـاحب لمن صـاحبنى، ومطيع لمن أطاعنى، ومختار لمن اختارنى.

وقل لعبادى : هلموا إلى مصاحبتى ومؤانستى ، وسارعوا إلى محبتى وقربى .

اعلم يا داود أنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى ، ويحيى زكيى ، ومحمد حبيبى .

يا داود ؟ هل رأيت حبيباً يبخل على حبيبه ؟ .

يا داود ! ألا إن طال شوق الأبرار إلى لقائى ، فإنى إليهم لأشد شوقاً .

ألا من طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى .

[صفة الأبرار] :

يا داود ! إذا كان الغالب على عبدى الاشتياق إلىَّ ، والاشتغال بى ، جعلتُ راحته ولذته فى ذكرى ، وعشقته ، ورفعت الحجاب بينى وبينه ، أُحِبُّه ويحبنى ، حتى لا يغفُل إذا غفل الناس ، ولا يسهو إذا سها الناس ، ولا يلهو إذا لَهَا الناس ، أولئك الأبرار حقاً .

يا داود ! إن طلبتنى وجدتنى ، وكفيتك الأسباب ، ولم أطالبك بالحقوق ، وإن طلبتَ غيرى شغلتك بالأسباب ، وطالبتك بالحقوق .

يا داود ! إنى جعلت محبتى لمن لا ينسانى بلسانه وقلبه ، فإنه لا شىء أنقص عندى من الغفلة والنسيان .

يا داود ! إن رضيت عنى ، رضيت عنك ، وإن أفردتنى بالحاجة ، أفردتك بالإنجاح ، وإن شكرتنى صيرتُك ملِكاً فى الدارين .

يا دواد ! من لم يصبر على بلائنا ، لا يَفزعْ إلينا .

يا داود ! إنى إذا أحببت عبداً من عبيدى ، ملأت قلبه خوفاً منى ، وتشوقاً إلى لقائى ، وحرصاً على طاعتى .

يا داود ! وأوليـائى فى قبابى ، لا يعرفهم إلاَّ أوليائى ، فطـوبى لأوليائى ، وطوبى لأحبائى .

يا داود ! إنى لا أنسى من ينسانى ، فكيف أنسى من يذكرنى ؟ .

يـا داود ! إنى أجـود على من يبخل علىَّ ، فكيف أبخل على من يجـود بى؟ .

يا داود ! إنى أحب من يبغضنى ، فكيف أبغض من يحبنى ؟ .

يا داود ! بشر عبادى السائلين : بأنى بهم رءوف رحيم .

يا داود ! كل حبيب يحب خلوة حبيبـه ، وأنا مطلع على قلوب أحبائى ، قل للمتلذذين بذكرى : هل وجدتم رباً أبَرَّ منى ؟ .

يا داود ! من أطاعنى وهو يحبنى ، أسكنه جنتى ، وأريه وجهى .

ومن عصانى ولم يحبنى ، أدخله نارى ، وأُحِلُّ عليه سخطى .

يا داود ! وعزتى وجلالى ، لا يجاورنى إلا من طلب جوارى .

يا داود ! كذب من ادَّعى محبتى ، وإذا جن عليه الليل نام عنى .

يا داود ! من عـرفنى أرادنى ، ومن أرادنى طلبنى ، ومن طلبنى وجدنى ، ومن وجدنى لا يختار علىَّ حبيباً سواى .

يا داود ! من طلبنى قتلته ، ومن أحبنى ابتليته ، ومن هرب منى أحرقته .

يا داود ! بشر المذنبين بأنى غفور، وأنذر الصدِّيقين بأنى غيور.

يـا داود ! من لقينى وهو يخـافنى ، لم أعـذبـه بنارى ، ومن لقينى وهـو يحبنى ، لم أحزنـه بفراقى ، ومن لقينى وهو مستحيى منى ، لم أخجلـه يوم يلقانى .

يا داود ! جنتى لمن لم يقنط من رحمتى ، وغضبى على من أخطأ خطيَّةً فاستعظمها فى جنب عفـوى ! ولو عاجلت أحداً بالعقـوبة ، إذَنْ عاجلت القـانطين من رحمتى ، وما العجلـة من شأنى ، فهـا أنا مطلع على قلـوب أحبـائى ، إذا جنَّ الليل ، جعلت أبصارهم فى قلـوبهم ، فخاطبـونى على المشافهة ، وكلمونى على الحضور.

يا داود ! لولا أنى ربطت أرواح أحبائى فى أبدانهم ، لخرجت الأرواح من أبدانهم ، شوقاً إلى لقائى .

يـا داود ! إن مـن عبـادى عبـاداً جعلتهم للخيـر أهــلاً ، وجعلت لهم المؤانسة نصيباً ، طوبى لهم وحسنُ مآب .

وروى أن الله تعــالى ، أوحى إلى يحيى بن زكـــريـا عليهمـا الصــلاة والسلام :

إنى قضيت على نفسى أن لا يحبنـى عبـد من عبـادى ، أعلم ذلك من قلبه ، إلا أنى كنت سمعـه وبصره ولسانه ، وأُبَغِّضُ إليـه كلَّ شىء ، وأمنعه شهوات الدنيا ولذاتها ، وطيب عيشها ، وأطَّلع عليه فى كل يوم سبعين ألف مـرة ، وأزيد لـه كل ساعـة : لـذائذ حبى ، وحلاوة أُنسى ، وأمـلأ قلبه نـوراً منى ، حتى ينظر إلىَّ كل ساعة فأمسح بـرأسه ، وأضع يدى على ألمِ قلبه ، حتى لا يشكـو منـه ، وأنـا أسمع خفقـان قلبـه ، من الشـوق إلى لقَـائى ، والخـوف من قطيعتى ، وهـو يقـول : حقيق علىَّ أن لا يسكن قلبى ، حتى أصل إليك يا ربى ! .

[سبحانك يا ربى ما أكثر توددك إلى خلقك] :

يا يحيى ! وكيف يسكن قلب المشتاق ، وأنا غـاية منيته ، ومنتهى أمله؟ وهـو كل ساعـة يتقـرب إلىّ وأتقرب إليـه ، وأسمع كـلامه ، وأعلم أسفـه ، وأحب صوته .

فوعزتي وجلالى ! لأنقبنه يوم القيـامة منقباً يغبطه الأولون والآخرون ، ثم آمر منادياً ينادى من تحت عرشي : هذا فـلان ابن فلان ، وليُّ الله وصفيُّه ، دعاه الله ليقرَّ عينه .

ثم آمـر بـرفع الحجاب حتى ينظـر حبيبى إلىَّ ، وأقـول : السـلام عليك عبدى ووليىِّ ، أُبَشِّرُك .

قال : فغشى على يحيى ، فلم يفق ثلاثة أيام ، فلما أفاق قال :

سبحـانك ، سبحـانك ، مـا أكثر تـوددك إلى أوليـائك وأصفيـائك ؟ لا يفصل عنك الأمل ، يـا خيـر صـاحب وأنيس ! فنعم المـولى أنتَ ونعم النصير.

وروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبـه : وعزتى وجلالى ! لأقطعن أمل كل مؤمل غيرى بالإياس ، يؤمل عبدى غيرى ، والخير كله بيدى ! .

من الذى أملنى فقطعت عنـه أمله ؟ ومن الذى رجـانى فخيبت رجاءه؟ ومن الذى قرع بابى بالدعاء فلم أفتح له ؟ .

عبدى ! تنعم بذكرى ، فإنى نعم الحبيب لك فى الدنيا والآخرة .

عبدى ! ستذكرنى إذا جربتَ غيرى ، بأنى لك خير من كل ما سواى .

عبدى ! أمـا استحييت منـى إن أعـرضت وجهك عنـى ؟ وتقبل على غيرى ! .

عبدى ! إلى أين تذهب ؟ وطريق الوسيلة إلىَّ لا إلى غيرى ! .

عبدى ! أين من دعانى فلم أجبه ؟ وأين من سألنى فلم أعطه ؟ .

عبدى ! بابى لك مفتوح ، وعطائى لك مبذول ، وأنا أرحم الراحمين .

وروى أن الله تعالى، قال لموسى عليه الصلاة والسلام: حقت محبتى للمتحابين من أجلى، وحقت محبتى للمتواصلين من أجلى، وحقت محبتى للمتزاورين من أجلى.

يا موسى ! إن ذكرتنى ذكرتك، وإن رضيتَ عنى، رضيتُ عنك، وإن كنتَ لى فرداً، كنت لك الفرد، وإن لم تردَّ على حكمى، واليتك واصطفيتك، وقربتُ مقعدك منى.

يا موسى ! إذا خفت فَخَفْنى حتى أؤمنك، وإذا أحببتَ فأحبنى، حتى أحبك، وأحببك إلى قلوب الصالحين، وإذا نظرتَ فانظر إلىَّ، حتى أنظر إليك من فوق عرشى.

وروى فى بعض الأخبار، أن الله تعالى يقول يوم القيامة لأوليائه: « يا أوليائى ! طال ما لحظتكم ورأيتكم فى دار الدنيا، وقد غارت أعينكم، وقلصت شفاهكم، وخفت بطونكم، فكلوا واشربوا، هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية.

أوليائى وأحبائى ! جزائى لكم أفضل البذل، وفضلى لكم أوفر الفضل، ومعاملتى إياكم أحسن المعاملة، ومطالبتى إياكم أشد المطالبة، أنا مؤنس القلوب، وأنا علام الغيوب.

****

الحديث الثانى والثلاثون :

صاحب الخُلق العظيم

أخبرنـا شيخنا الشيخ الجليل : أبو الفضل على الواسطى ، قـال : أنبأنا أبـو الحسن عبـد الـرحمن الـداودى ، قـال : أنبأنـا أبـو محمـد عبـد الله السرخسى ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى ، قال : أنبأنا أبـو عبـد الله محمـد بن إسمـاعيل البخارى ، قـال : حـدثنـا عبـد الله بن مسلمة ، قال : حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة ، عن هلال بن أبى هلال ، عن عطاء بن يسـار، عن عبد الله بن عمرو بن العـاص ، رضى الله عنهما ، أنه سُئل عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة فقال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن :

« يَا أَيُّهـا ٱلنَّبِىُّ إِنَّا أَرسلْنَاكَ شَـاهِداً ، وَمُبَشِّـراً ، ونذيراً ، وَحِـرْزاً لِلأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْـدِى وَرَسُـولى ، سمَّيْتُكَ : الْمُتَـوَكِّلْ ، ليْـسَ بفظٍّ وَلا غَلِيظٍ ، وَلا سَخَّاب (عـالى الصوت) فـى الْأَسْوَاقِ ، وَلا يَدْفَـعُ ٱلسَّيِّئَةَ بالسَّيئَـة ، وَلٰكِنْ يَعْفُوُ وَيَغْفِرْ ، وَلَنْ يَقْبِضهُ ٱللَّهُ حَتَّىٰ يُقيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بِأَنْ يَقُولُوا : لاإِلَه إلاَّ ٱللَّهُ ، فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُناً عُمْياً ، وَآذَاناً صُماً ، وَقُلُوباً غُلْفاً » (١) .

ولنا بهذا السند عن البخارى ، قال : حدثنا خالد بن مخلد قال : حدثنا سليمان قـال : حدثنـا عبد الله بن دينـار ، عن أبى صالح ، عن أبى هـريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) رواه البخارى .

« إِنَّ ٱلرَّحِمَ شُجْنَةٌ (وهى القرابة المتشابكة) مِنَ الرَّحْمٰنِ ، تَقُولُ : يَا رَبِّ ! إِنِّى قُطِعْتُ ، يَا رَبِّ ! إِنِّى أُسِىءَ إِلَىَّ ، يَا رَبِّ ! إِنِّى ظُلِمْتُ ، يَا رَبِّ ! .

فَيجيبُهَا : أَلاَ تَرْضيْنَ أَنْ أَصلَ مَنْ وَصَلك ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ » .

فالحديث الأول أفاد : أن الله يُسعف نبيه ﷺ حتى يقوِّم العوجاء ، بكلمة : لا إلٰه إلا الله .

والحديث الثانى أفاد : أن الرحم من أشعة نور الرحمن ، من وصلها اتصل ، ومن قطعها انقطع .

والجمع بين السرين فى الحديثين ، هو فتح القلب والعين والأذن بالتوحيد الخالص ، وإيصال القلب بالرحمن ، بحبل الرحمة والشفقة على الخلق ، وبهذا تعين الأقرب فالأقرب ، يفهم ذلك العارف ، فكلمة التوحيد تفيد : الإيمان بالله ، وصلة الرحم تفيد : التخلق بخلق الله ، وهو الرحمن ، وإليه المرجع فى المبطن والعيان ، وبه المستعان ، وعليه التكلان ، وما ذلك إلاَّ لإعظام أمر الله ، وهو من إعظام الله .

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى : اعرف حرمة من لا تعرف الفضل إلاَّ منه ، ولا ترجو الراحة إلاَّ منه ، واستحى منه حق الحياء ، واذكر امتنانه إذ خلقك ولم تك شيئاً ، وزينك بنور المعرفة ، حتى كأنك لم تزل تعرفه ، ولولا فضله ورحمته عليك ، كيف كنت تعرفه بأنه مولاك ، من غير أن تراه بعينك ؟ .

ثم طَهَّرَ سرك وضمائرك ، من الشك والشبهة والنفاق ، وألبسك من أحسن لباسه ، وتوَّجك بتاجه بلا سؤال ، ثم دعاك إلى دار السلام .

ويقال : لا يزال المؤمن عظيماً ، ما أعظم الله ، وعظَّمَ أمره ، وعظَّم أولياءه ، وعرف قدرهم وحرمتهم .

[الحياء شعبة من الإيمان] :

وحكى أن رجلاً من ملوك الدنيا، قال لشقيق البلخى : سل حاجتك ! .

قال : إنى لأستحيى من ربى أن أسـألك، ومولاى ناظـر إلىَّ يقول : سل حاجتك بلا حشمة، حتى أرضى عنك، ولا تسأل غيرى فأمقتك ! .

ودخل على رابعة البصـرية جماعـة من الزهاد، وفيهم سفيـان الثورى، فرأوا لها حالة رثة ! .

فقال لها بعضهم : أما ترسلين إلى بعض مواليك ليعطيك شيئاً ؟ .

فقالت : والله إنـى لأستحيى أن أسأل الدنيا ممن يملكهـا، فكيف ممن لا يملكها ؟ .

وقيل لأبى عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ : ما صفة المريدين ؟ .

قـال : أن يكونـوا مع الناس بأبـدانهم، وقلوبُهم تحت العـرش، كأنهم يرون ربهم فوق عرشه، ويستحيون أن يسألوه شيئًا سواه .

وفى الخبر : أرأيتم سليمان وما أعطى من المُلْك ؟ فإنه لم يرفع رأسه إلى السماء، تخشعاً لله، وحياء منه، حتى قبضه الله .

وقال عامـر بن عبد قيس رحمه الله تعالى : مـا نظرت إلى شىء إلا رأيت الله أقرب إلىَّ منه، وأن نظره إلىَّ قبل نظرى إلى ذلك الشىء .

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ إذا قرأ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

قال : إِلَهى ! هذا قربك إلى أعدائك، فكيف قربك إلى أوليائك ؟ ! .

وقال شهر بن حـوشب رحمه الله : ما رأيت إبراهيـم التميمى رافعاً رأسه وبصره إلى السماء قط، حتى قبضه الله، حياء منه ! .

ومرض العارف داود الطائى ـ رضى الله عنه ـ وهو فى جوف بيته، فقيل له: لو خرجت إلى صحن الدار، حتى تهب عليك ريح الهواء.

قال: إنى لأستحيى من الله، أن يرانى وأنا أطلب الراحة لنفسى فى الدنيا!.

ويقال: كان فى مِصْرَ رَجلٌ مجذوم، فقال: إنه يعرف اسم الله الأعظم.

فقيل له: لو دعوت الله باسمه الأعظم، أن يكشف عنك هذا البلاء.

قال: إنى لأستحيى منه، أن يكون لى مراد بخلاف مراده.

[الصلاة معراج العارفين]:

وكان سيدنا الإمام الحسين بن الإمام على عليهما السلام، إذا توضأ ليصلى اصفر لونه، وارتعدت فرائصه، فقيل له فى ذلك؟.

فقال: حق لمن وقف بين يدى رب العرش، أن يتغير لونه حياء من إجلاله.

وكان مسلم بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ يصلى، فانهدمت زاوية من المسجد ولم يشعر.

وكان الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، ترتعد فرائصه عند قضاء أمانة، لم تحملها السمٰوات والأرض، وهى: الصلاة.

ولدغت امرأة حية، فى أربعين موضعاً ولم تشعر، من حلاوة الصلاة!.

وكان مسلم بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ يصلى، فوقع الحريق فى بيته، وفزع الناس إليه، حتى أطفأوها ولم يشعر.

قال الجريرى رحمه الله تعالى: إنى لأستحيى من الله، أن أنام تكلفاً حتى يَصرعنى النوم.

وحكى أن معاذة بنت عبد الله ـ رحمها الله تعـالى ـ ما رفعَتْ بصرها إلى السمـاء أربعين عامـاً، وكانت تقـول: عجبت لعين تنام، والحبيب إليهـا ناظر، وربما كانت تتفكر فى جلاله وعظمته، حتى يُغشى عليها.

وكـان داود عليه الصـلاة والسلام، لا يـرفع رأسـه إلى السماء هيبـة من إجلاله تعالى.

وقال ابن سنان رحمه الله تعالى: ما اتخذ الله إبراهيم خليلا، حتى ألقىٰ فى قلبه إجلالاً منه، بحيث يسمع خفقان قلبه، كالطير فى الهواء.

عـلامة السعـداء ثـلاثـة: التمسك بسنة النبىِّ المختـار، والصحبـة مع الأولياء الأخيار، والحياء من الملك الجبار.

ومكتـوب فى الــزبـور: يـا داود! إنى لأستحيـى من عبـدى أن أرده إذا دعانى.

وإن عبدى لا يستحيى أن أدعوه فلا يجيبنى؟!.

قال النبى ﷺ «الْإِحْسَـانُ أنْ تَعْبُدَ ٱللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَـرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قال الفضيل رحمـه الله تعالى: إلٓهى! ارحم من لـو عقل لم يتكلم من الحياء.

وحكى أن عـامر بن قيس ــ رحمـه الله تعالى ــ كـان يصلى، فاكتنفتـه السباع، فلمـا انفلت من صلاته مسـح ظهورهم بيده، وقـال: أنتم كلاب الله، وأنا عبد الله.

فقيل له: هل هبـتَ منهم؟ قال: إنى لأستحيى من ربى أن أهـاب شيئاً دونه.

وقال صالح المرى رحمه الله تعالى : رأيت ربِّى فى المنام ليلة ، فقلت : لبيك ، لبيك ، وصرتُ كالبعوضة من إجلاله ! .

فقال : يا صالح إنى لخبير بالمريدين ، وإنى أسمع أنينهم ، وأرى حركاتهم ، وإنى لمطلع على سرائرهم وضمائرهم ، قال : فدهش عقلى حياء منه .

وحكى أن الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - صعد موضعاً يؤذن للصلاة ، فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، غشى عليه ، من إجلاله ! .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ، فإذا حضرت الصلاة ، كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ! .

وقال بعض أهل المعرفة ، فى معنى قوله ﷺ « **جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى ٱلصَّلاَةِ** » .

لم يكن الصلاة قرة عينيه ، ولكن إذا قام للصلاة ، رأى فيها ما تقر عينه ، لقوله : « **الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ** » .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : صليت خلف ذى النون صلاة العصر ، فلما أراد أن يكبر ، رفع يديه وقال : الله . فبَهِتَ ! وبقى كأنه جسد لا روح فيه ، من إجلاله ، ثم قال : أكبر ، فظننت أن قلبى ينخلع من هيبة تكبيره ! .

قَلَّ حَيَاءُ النَّاسِ مِنْ رَبِّهِمْ ... فَكُلُّهُمْ يُظْهِرُ تَقْوَاهُ !
لَيْسَ يُبَالِى الْخُبْثَ فِى ثَوْبِهِ ... مَنْ بَالَ فِى عَاجِلِ دُنْيَاهُ
يَخَافُ أَنْ يَمْقُتَهُ أَهْلُهُ ... وَلاَ يُبَالِى مَقْتَ مَوْلاَهُ !

****

الحديث الثالث والثلاثون :

طلب البركة وفسحة الأجل

أخبرنا شيخنا القاضي المقرى، القدوة الشيخ : أبو الفضل على الواسطى رضى الله عنه ، قال : أنبأنا أبو على الحسن بن على ، قال : أنبأنا عمر بن أحمد ، قال : أنبأنا شاهين ، قال : أنبأنا عبد الله البغوى ، قال : أنبأنا عبد الله بن عمر القواريرى ، قال : أنبأنا زائدة بن أبى الرقاد ، عن زياد النميرى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا دخل رجب قال :

« اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِى رَجبٍ وَشَعْبَانَ ، وبلِّغْنَا إِلَى رَمَضَانَ » (١) .

فى هذا الحديث الشريف معان كثيرة ، منها : طلب فسحة الأجل ، لصالح العمل ، ليكون العمر لله ، والعمل فيه لله ، وكذلك مقاصد العارفين بالله ، الوارثين رسول الله ﷺ ، وهذا حال أهل التقوى .

أى بنى ! اعلم أن التقوى على وجهين : خاص ، وعام ، فأما [وجه] التقوى الخاص : فالاتقاء بالسر عن الهمة والمُنْيَة من غير ذات الله تعالى ، حيث قال تعالى : ﴿ اتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ .

وأما تقوى العام : فالاتقاء بالظاهر عن جميع ما كره الله تعالى .

قال الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ .

والله تعالى جعل الفرج والمخرج من الهموم ، واليسر والسعة فى التقوى ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يجعَلْ لَهُ مَخْرجاً * ويَرْزقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ :

---

(١) رواه الإمام أحمد والبيهقى .

[التقوى سبيل السعادة] :

قيل في معناه : ومن يتق الله في أداء الطاعة ، يجعل لـه مخرجاً من غبار الذنوب والزلات ، ويرزقه النجاة من العقوبات ، من حيث لا يحتسب .

ومعنى آخر : ومـن يتق الله عند الإنابـة بالحجـة ، يجعل له مخـرجًا من شدة المحاسبة ، ويرزقه سلامة الدارين ، من حيث لا يحتسب .

ومعنى آخر : يجعل له مخرجًا من جميع الاشتغال بغير الله ، ويرزقه حياة طيبة من حيث لا يحتسب .

ومعنى آخر : من يتق الله بترك المحارم والشبهات ، يجعلْ له مخرجًا من الإرادات والشهوات ، ويرزقه حلاوة الطاعة ، من حيث لا يحتسب .

ومن يتق الله عند قـول الحق ، ولا يخاف لـومة لائم ، يجعلْ له مخـرجًا من مكر الناس ومكائدهم ، ويرزقه الظفر من حيث لا يحتسب .

ومن يتق الله بترك التعلق بغير الله ، يجعل له مخرجًا من عبودية ما سواه ، ويرزقه الصدق والإخلاص ، من حيث لا يحتسب .

يروى أن أبـا هريـرة سمع النبي ﷺ يقول : إذا كان يـومُ القيامـة يقول الله تعالى : يـا أيها الناس ! إني جعلت نسبًـا ، وأنتم جعلتم نسبًا ، إني جعلت أكـرمكم أتقـاكم ، وأنتم جعلتم أكـرمكم أغنـاكم ، وإني أرفع اليـوم نسبي وأضع نسبكم ، فأين المتقون ؟ اليوم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

وقال ﷺ : **« إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ، فَمَنِ ٱتَّقَىٰ ٱلشُّبُهَاتِ فَقَد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِى ٱلشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ . . . »** .

فـ **« دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلىٰ مَا لا يَرِيبُكَ »** .

وقال عيسى عليـه الصلاة والسـلام : لو صمتم حتى تكـونوا كـالأوتار ، وصليتم حتى تكونوا كالحنايا ، ما قبل منكم إلا بورع صادق .

وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى : من وضع شهواته تحت قدميه ، فرَّ

الشيطان من ظله ، ومن غلب عقلُه هواه ، فذاك الصابر الغالب .

وقيل لرجل مِنْ أهل التقوى : من أين جئت ؟ .

قال : ما سؤالك عن شيء لا ينفعك معرفته ، ولا يضرك جهله ، فاشتغل بما يعنيك ، عما لا يعنيك .

فقيل له : ما رأس التقوى ؟ .

قال : أن تحفظ نفسك من الشهوات ، وحلقك من اللذات ، وقلبك من الغفلات .

وقال : اتق الله الذى آخذ آدم بلقمة ، وموسى بلطمة ، وداود بنظرة ، ويوسف بهَمَّة ، ونوحاً بدعوة ، ومحمداً بخطرة ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وقال عبيد بن عمير رحمه الله تعالى : لا ينبغى لمن تزين بلباس الورع والتقوى ، أن ينظر إلى شهوات الدنيا ، ويتكلم بما لا يعنيه .

وقال جعفر الأزدى : بلت فى أصل حائط ، فهتف بى هاتف : تدَّعى التقوى ، وتبول فى أصل حائط غيرك ! ! .

وحكى أن ابن المبارك ــ رحمه الله تعالى ـ ارتحل من مرو إلى الشام ، من أجل قلم كان قد استعاره فلم يرده إلى صاحبه .

وفى الخبر : لا تفضلوا أحداً على أحد ، إلا بالورع والتقوى ، لأنهما أفضل الأعمال .

وقال أُبى بن كعب رضى الله عنه : ما من أحد ترك شيئاً لله ، إلا آتاه الله ما هو خير له منه ، من حيث لا يحتسب .

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى :

حرام على كل قلب فيه حب الدنيا ، أن تسكن فيه التقوى .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

القليل من الورع ، خير من صلاة أهل الدنيا .

وروى أن موسى عليـه الصلاة والسلام قـال: إلّهى ! خلقتَ آدم بيدك، وأدخلته الجنـة، وفعلت به مـا فعلت من الإحسان، ثم أخرجتـه منها بـزلة واحدة !.

فقال: يـا موسى ! أمـا علمت أن جفاء الحبيب شـديد، لا يُحتمل من الأحباء، ما يُحتمل من الأعداء.

وَلَسْتُ أَرَىٰ ٱلسَّعَادَةَ جَمْـعَ مَالٍ ‌ ‌ ‌ ‌ وَلٰكِنَّ التَّقِـىَّ هُـوَ ٱلسَّعِـيدُ

****

الحديث الرابع والثلاثون :

بركة التسمية باسم رسول الله

أخبرنا شيخنا القاضي القدوة : أبـو الفضل على الواسطى ، قال : أخبرنا أبوالحسن محمد بن أحمد ، قال : أنبأنـا أبو عبد الله الحسين ، قال : أنبأنا أحمد بن بكير بن حامد ، عن حماد العسكرى ، عن إسحٰق بن سيار ، عن حجاج بن منهال ، عن حماد بن سلمـة ، عن برد بن سنان ، عن مكحول ، عن أبي أمـامة البـاهلى ، قال : قـال رسول الله ﷺ : « **مَنْ وُلِدَ لَـهُ مولودٌ فسماهُ محمدًا تبركاً به ، كان هو ومولودهُ فى الجنة** »[(١)].

فى هـذا الحـديث الشـريف ، مـن سِـرِّ الحب لـه ﷺ مـا يفهمـه أهل الخصوصية ، فإنهم بـذكر اسمه المبارك ، ترتـاح هممهم للتخلق بأخلاقه الزكية ، وللتشبث بأذيـاله ، فتراهم لا تقف هممهم فى طريق متـابعته وقفة المشغول بـالدنيـا ، بل هم متنبهون خـاشعون ، ومن الله خـائفون ، ولنبيهم متبعون ، وبسنته عاملون ، وأولئك هم العارفون .

أى بنى ! اعلم أن أهل المعرفة يبكون إذا ضحك أهل الغفلة ، ويحزنون إذا فرح أهل الغرة .

قال الله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ .

أنواع البكـــاء

وإن الله تعالى ، ذكر مـن دلائل المعرفة ، ومن علامات العـارفين ، كثرة البكاء وسيل الدموع ، قال تعالى : ﴿ **وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ** ﴾ .

وذم أهل الغفلـة بـالضحك ، وتـرك البكـاء ، فى قـولـه : ﴿ **أَفَمِنْ هَٰـذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحكُونَ وَلَا تَبْكُونَ** ﴾ .

---

(١) رواه ابن عساكر.

واعلم أن البكاء بكاء العين، وبكاء القلب، وبكاء السر.

فأما بكاء العين، فهو لأهل المعرفة من المنيبين.

وأما بكاء القلب، فهو لأهل المعرفة من المريدين.

وأما بكاء السر، فهو لأهل المعرفة من المحبين.

واعلم أن لأهل المعرفة، همومًا مخبوءة تحت أسرارهم، مستورة عن أفكارهم، فكلما هاج من أسرارهم رياح خشية الهيبة، ومن قلوبهم لهب نيران الأحزان، أحرقت ما عليها من هشيم الغفلة والنسيان.

[درجات البكاء] :

والبكاء على خمسة أوجه :

١ ـ بكاء الحياء، مثل بكاء آدم.

٢ ـ وبكاء الخطيئة، مثل بكاء داود.

٣ ـ وبكاء الخوف، مثل بكاء يحيى بن زكريا.

٤ ـ وبكاء الفقد، مثل بكاء يعقوب.

٥ ـ وبكاء الهيبة، مثل بكاء سائر الأنبياء، وهو قوله تعالى ﴿ **إذا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً** ﴾ (١).

وبكاء سادس: مثل بكاء شعيب، ذلك بكاء الشوق والمحبة، بكى شعيب حتى ذهب بصره، ثم رد إليه بصره ـ فبكى حتى ذهب بصره ـ ثلاث مرات ـ فأوحى الله تعالى إليه: أن يا شعيب ! إنْ كان بكاؤك من مخافة النار، فقد أمنتك من النار، وإن كان بكاؤك من أجل الجنة، فقد أوجبت لك الجنة.

فقال: لا يا رب! ولكنْ مِنَ الشوق إلى رؤيتك.

فأوحى الله إليه: أن يا شعيب! حُقَّ لمن أرادني أن يبكي من شوقي، إنه ليس لهذا الداء دواء، غير لقائي.

---

(١) مريم: ٥٨.

ويروى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال: لو أن عبداً بكى من خشية الله فى أُمَّة، لرحم الله تلك الأمة ببكائه.

وقالت رابعة رحمها الله تعالى: بكيت عشر سنين عن الله، وعشر سنين بالله، وعشر سنين إلى الله، فأما ما هو بالله: فالرجاء به، وأما ما هو عن الله: فالخوف منه، وأما ما هو إلى الله: فالشوق إليه.

وقال بعضهم: دخلت على رابعة البصرية، فإذا هى ساجدة، فجلست عندها حتى رفعتْ رأسها، فإذا فى موضع سجودها ماء واقف من دموعها، فسلمت عليها، فردت علىَّ السلام، وقالت: ما حاجتك؟ قلت: أريد زيارتك؟ فبكت، ثم صرفت وجهها عنى، وكانت تبكى وتقول: قرة عينى، لا بد لى منك، فالعجب ممن عرفك، كيف يشتغل بغيرك؟ والعجب ممن أرادك؟ كيف يريد غيرك؟!.

وكان عطاء السلمى ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراً ما يقول فى بكائه:

اللهم ارحم انقطاعى إليك، وإعراضى عن سواك، وغربتى فى بلادك، ووحشتى بين عبادك، ووقوفى بين يديك.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: بينا أنا فى الطواف، إذا أنا برجل قد تغيَّر لونه، ونحل جسمه، وهو يبكى ويدمدم مع نفسه، فدنوت منه، فإذا هو يقول: إِلَهى! قد استأنستْ بك قلوب المحبين، واسْتَرَاحَتْ إليك قلوب العارفين، فلا تقطع منك آمال المشتاقين.

قال: فسمعت هاتفًا يقول: يا ولى الله! لقد أبكيت السمٰوات السبع، أسكت، فإن لك ما سألت!.

وروى أن آدم عليه الصلاة والسلام، لما نزل من الجنة، بكى حتى نبت من دموعه النبات، فأوحى الله إليه: هذا البكاء على فوت الجنان، فأين البكاء على ترك خدمتى؟ ففزع آدم إلى كلمة الإخلاص، فقال: لا إله إلا أنت سبحانك.

قال الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: رأيت بمكة رجلاً يبكى بكاء العارفين، فدنوت منه وقلت: ألك حبيب؟ قال: نعم. قلت: حبيبك قريب أم بعيد؟ قال: قريب. قلت: موافق لك أم مخالف؟ قال: بل موافق لى، قلت: سبحان الله! فلم تبكى؟.

قال: أما علمت أن عذاب القرب والموافقة، أشد من عذاب البعد والمخالفة.

وحكى أن رابعة - رحمها الله تعالى - كانت تمر يومًا فى بعض طرق البصرة، فقطرت عليها قطرة من الميزاب، فسألت عنها، فقيل: إنها من بكاء الحسن، قالت: قولوا للحسن: لو ازددت بالدموع، حتى تصل للعرش محبة له، لكان قليلاً.

وقال عباد بن شميط بن عجلان: هل يبكى المنافق؟.

قال: أما من الرأس فنعم، وأما من القلب فلا!.

قال الفضيل رحمه الله تعالى: إذا رأيت الرجل يبكى، وقلبه ساه، فهو بكاء منافق! وإن البكاء: بكاء القلب.

قيل لمالك بن دينار - رحمه الله تعالى -: ألا تجئ بقارئ يقرأ بين يديك؟.

فقال: إن الثكلى لا تحتاج إلى النائحة.

وقال كعب الأحبار رحمه الله تعالى: لأن أبكى دمعة من خشية الله أحب إلىَّ من أن أتصدق بجبل من الذهب.

وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - كثيرًا ما يبكى ويقول: يا نفس! تريدين أن تجاورى الجبار، وتشاهدى المختار، بأى شهوة تركتها؟ بأى بعيد قربتِهِ إلى الله؟ بأى ولى أحببتِه لله؟ بأى عدو أبغضتِه لله؟ بأى غيظ كظمتِه لله؟ لا، والله لولا عفو الله ورحمته، ثم يُغشىٰ عليه.

وروى أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام:

« لن يتقرب إلىَّ المتقربون بمثل البكاء من خشيتى ».

وقال ثابت النساج رحمه الله : ما شرب داود عليه الصلاة والسلام شربة من الماء بعد الخطيئة ، إلا وكان نصفه دموعه ، حتى لحق بالله عزَّ وجل ، فقال يومًا من الأيام فيما رأى من كثرة دموعه : أما ترحم بكائى يا إلٓهى! فنودى من السماء : يا داود! تذكر دموعك ، ولا تذكر ذنبك؟! فأخذ برمض النار من الرماد ، وصار يجعله على رأسه ، ويقول : ذهب ماء وجهى عند ربى .

وقيل : كان فى عهد الحسن البصرى ـ رضى الله عنه رجل كان له ابنة تبكى حتى عميت عيناها ، فجاء الرجل إلى الحسن ودعاه ليعظها ، لعلها ترفق بنفسها ، فأتاها الحسن وقال لها : ارفقى ! .

فقالت : أيها الأستاذ! إن عينى لا تخلو من وجهين ، إما أن تصلح لرؤية ربى ، أو لا تصلح ، فإن لم تصلح فحُقَّ لها أن تعمى ! وإن كانت تصلح فألوف مثل عينى فداء لرؤيته .

قال الحسن : جئت مداوياً ، فصرت مداوىٰ ، وأتيت مطبباً ، فوجدت طبيباً .

وقالت سلمة بنت خالد المخزومى رحمها الله : كانت امرأة من الشام ببيت الله الحرام ، يقال لها : حزينة ، أبداً تبكى من غلبة الشوق ، وكلما نظرتْ إلى باب الكعبة ، قالت : بيت ربى ، بيت ربى .

ففُتِحَ باب الكعبة يوماً من الأيام ، فرأت فيها طائفين يبكون ، ويقولون : مليكنا وقرة أعيننا ، طال إليك شوقنا ، متى تكون ملاقاتنا؟ فسمعت تلك المقالة ، فصاحت صيحة وخرت مغشياً عليها ، ولم تزل تضطرب حتى ماتت .

وقال يحيى بن أصفر : دخلنا مع جماعة من أصحابنا على عفيرة العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ وكانت عمياء من كثرة بكائها ـ فقال واحد منا : ما أشد

العمى بعد البصـر ! فسمعت ذلك ، فقالت : يا أبـا عبد الله! عمى القلب عن الله ، أشد من عمى العين ! ووددت لو أن الله أعطانى كُنْه محبته ، ولم يبق لى جارحة إلا أخذها منى ! .

اللَّيْـلُ دَاجٍ وَالْعُصَـــــاةُ نِيَــــامُ
وَالْعَـــارِفُـــونَ لَـــدَىٰ الْجَلِيـلِ قِيَـــامُ
يَتْلُــــونَ آيَــاتِ الْهُــــدَىٰ وَدُمُــــوعُهُمْ
تَجْـــرِى وَمِنْهَـــا قَـــدْ تَفِيـضُ سِجَـــامُ
لَا يَصْبِـــرُونَ سُــــوَيْعَـــةً عَنْ ذِكْـــرِهِ
شَــــوْقـــاً ، وَلَيْـسَ لِمَنْ يُحبُّ مَنَـــامُ

****

إذا أحب الله عبداً اجتباه

أخبرنا شيخنا خالى أبو المكارم : منصور، الباز الأشهب البطايحى، رضى الله عنه، قال : أنبأنا أبو على الحسن بن شاذان، قال : أنبأنا أبو نصر أحمد بن نصر بن محمد بن اشكاب النجارى، قال : أنبأنا الحسن بن محمد بن موسى القمى، قال : أنبأنا عبد الرحيم بن جندب، عن إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله، عن سفيان، عن ليث، عن طاووس، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ أَدَّىٰ إِلىٰ أُمَّتِي حَدِيثاً، لِتُقَامَ بِهِ سُنَّةٌ، أَوْ تُثْلَمَ بِهِ بِدْعَةٌ، فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ » (١) .

من هذا الحديث الشريف، يُعلم أن أهل الجنة القائمون بإقامة السُّنَّة، وإثلام البدعة، تجردًا لله تعالى، وتوكلاً عليه، وإيماناً به، وحباً له .

أى بنى ! اعلم أن حبيب القلوب سبحانه، إذا أحب عبداً أطلع سره على جلال قدرته، وحرك قلبه بمراوح ذكر مِنَّتِهِ، وسقاه شَربة من كأس محبته، حتى يُسكره به عن غيره، وجعله من أهل أُنسه وقربه وصحبته، حتى لا يصبر عن ذكر ربه، ولا يختار أحداً عليه، ولا يشغل بشىء دون أمره .

وقال الشيخ أبو بكر الواسطى رحمه الله : منزلة الحب أقدم من منزلة الخوف، فمن أراد الدخول فى عصبة أهل المحبة فليحسن الظن بالله، وليعظم حرمته .

(١) رواه أبو نعيم فى « حلية الأولياء » .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن يا داود! أحبنى، وأحب أحبائى، وحببنى إلى عبادى.

فقال داود: إلٰهى! أُحبك، وأحب أحباءك، فكيف أحببك إلى عبادك؟.

فقال: ذكِّرْهم آلائى، وحسن لطائفى.

وفى الخبر: «إذا أحب الله عبداً من عباده، نادىٰ جبريل عليه الصلاة والسلام: يا أهل السماء والأرض! يا معاشر أولياء الله وأصفيائه! إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبوه» [روى البخارى، ومسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ ٱللَّهُ تَعالىٰ الْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الْأَرْضِ».

وفى رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ ٱللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَقَال: إِنِّى أُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحبُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي ٱلسَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ ٱلسَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الْأَرْضِ.

وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِى أُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ: إِنَّ ٱللَّهَ يُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِى الْأَرْضِ»].

وقال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: كل عمل لم يكن فيه محبة الله لم يقبل.

وقال: من أحب الله ابتلاه بالمحن، فمن التفت منه إلى ما سواه صار محجوباً عنه، وسقط عن بساط أهل المحبة.

وقال عبد الله بن زيد رحمه الله تعالى: مررت برجل نائم فى الثلج، وعلى جبينه قطرات من العرق ! فقلت له: يا أبا عبد الله ! أما تجد البرد؟ فقال: من شغله حب مولاه، لا يجد البرد.

قلت: وما علامة المحب ؟.

قال: استقلال الكثير من نفسه، واستكثار القليل من حبيبه.

قلت له: أوصنى، فقال: كن لله، يكن الله لك.

وقال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: دخلت سوق النخاسين لأشترى جارية، فرأيت جارية مشدودة على وجنتيها عصابة، مكتوب عليها: من أرادنا أفلسناه ! ومن هرب منَّا وسوسناه !

فقلت: كذا قال الله تعالى لعباده: إن طلبتمونى أنسيْتُكم بنفسى عن غيرى، وأفنيتكم بى عن أنفسكم، حتى لا ترون شيئاً دونى.

قال: قرع واحد بابَ محبوبه، فقال مِنْ داخل الباب: من أنت؟ قال: أنا، أنت ! فقال: يا أنا ! أُدخل.

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّى ... أَفْنَيْتَنِى بِكَ عَنِّى
أدْنَيْتَنِى مِنْكَ حَتَّىٰ ... ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّى

****

ربنا ولك الحمـــد

أخبرنـا شيخنا العارف بالله : على القـارى ، الواسطى ، قال : أخبرنـا أبو بكر الوراق ، قـال : أخبرنا أبو محمد يحيى بن صاعـد ، عن أحمد بن عبد المؤمن ، عن على بن الحسن المروزى ، عن أبى حمزة ، عن منصور، عن إبـراهيم ، عن علقمـة ، عن عبـد الله قـال : كـان رسـول الله ﷺ إذا قـال : «سَمِعَ ٱللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، قَالَ : رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ » (١).

فى هذا الحديث ، من أسـرار الموافقة لداعى الله ـ الـذى يرد شأنه على كل لسان ـ ما يفهمه أهل الذوق من أرباب المحبة .

أى بنى ! قيل لواحد : ما حقيقة المحبة؟ قال : الموافقة .

قـال النبى عليـه الصـلاة والسـلام : « اللهم ارزقنـى حبَّك ، وحبَّ من يُحبُّك ، والعمل الذى يبلغنى حُبَّك ، واجعل حبَّك أحب الأشياء إلىَّ » .

وقال الإمـام أبو بكـر الصديق رضى الله عنه : من ذاق مـن خالص حب الله ، استوحش عمن سواه ، وترك لأجله كل ما يهواه .

ويقال : جفاء العدو غم نازل ، وجفاء الحبيب سُمٌّ قاتل .

وكان ذو النون المصرى ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراً ما يقرأ القرآن ، ثم بعد ذلك يشتغل بالحديث ، فسمع فى المنام :

إنْ كُنْتَ تَـــزْعُمُ حُبِّى ... فَلِمْ هَجَـــرْتَ كِتَـــابِى !
أَمَـــا تَـــدبَّـــرْتَ مَـــا فِيـــــهِ مِنْ لَطِيفِ عِتَـــابِى ؟!

(١) رواه البخارى ومسلم .

قال : فترك الحديث ، وأقبل على قراءة القرآن .

وروى أن الله تعـالى ، أوحى إلى داود عليـه الصلاة والسـلام : لا تجعل بينى وبينك عالمـاً مفتوناً فى الـدنيا وأهلها ، فيصـدك عن طريق محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى .

[أنـــواع المحـــــو]

ويقال : أصـل المحبة هـو المحو، إلاَّ أنها علـى ثلاث مـدارج ، العام والخاص ، وخاصُّ الخاص .

فأما العام : فمحو القلب عن حب الذنوب والمعاصى .

والخاص : محو القلب عن حب الدنيا وأهلها .

وخاص الخاص : محو القلب عن حب ما دون الله تعالى .

وقال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ فى بعض مناجاته :

إلٰهى ! لا تعذب قلباً أنت حبيبه .

إلٰهى ! إن تعـذبنى عـذبتَ من أحبـك ، وإن أهنتى أهنت من أحبك ، وإن أكرمتنى أكرمت من أحبك .

وحكى أن أبا يـزيد ـ رحمه الله تعـالى ـ تكلم يوماً بكـلام أهل المحبة ، فجاء طائر فلم يزل يدنو منه ، حتى جلس بين يديه ، ثم ضرب بمنقاره على الأرض ، وسال منه الدم حتى مات ! .

وحكى أن واحداً من العـارفين ، مرَّ برجل من العيَّـارين (وهم أصحاب الهمة فى أعمالهم) ، يضرب عبداً له بعود ، والعبد يضحك فى وجهه ! .

فقيل له : يا هذا ! يضربك السيد بالسياط ، وأنت تضحك ! .

قال: من حلاوة حبه، لا أجد ألم الضرب !.

فصاح العارف، وخرَّ مغشياً عليه.

وقال يحيى رحمه الله تعالى: ليس بصادق فى حبه، من لم يحفظ حدوده، ولم يعظم حرمته، ولم يعرف منته.

وحكى أن رجلاً جاء إلى عبد الواحد بن زيد فقال: أخبرنى بأقرب الأعمال إلى الله تعالى، وأعظمها عنده زلفى، فقال: أن تحبَّ ما يُحِبُّ الله. فقال: اشرح لى صفة المحبة ؟.

فبكى عبد الواحد وقال: أتحتمل ؟ قال: ما شاء الله.

فوصف له شيئاً من المحبة وحقائقها، فغشى على الرجل، فلما أفاق قال: سبحان الله ! من يستأهل هذا؟ أو مَنْ يطيق الاستقامة على تحقيق المحبة؟.

فقال: ربَّ قلب قصد محبوبه قصداً، لا يدركه الريح العاصف، ولا البرق الخاطف، حتى وصل إلى محبوبه.

قيل: أوَ هَلْ يكون للمحب علامة؟.

قال: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وكذلك المحبة، إذا دخلت القلب، تلاشت النفس بكل ما فيها من صفات الإنسانية تحت سلطانها، فاحترق ما فى القلب من غير الله بنيرانها.

قيل لبعضهم: ما بال المحبين كالمبهوتين ؟ قال: لأنهم ذاقوا حلاوة محبته، وسمعوا أصوات عجائب حسن دعوته، حتى طارت عقولهم وقلوبهم إليه، وصاروا مدهوشين به.

هيهات، أين الحب؟ وأين صفوة الحب؟ وأين حقائق الحب ؟ وأين من يستحق الحب؟ ألا إنَّ من أحبه لا يصبر عنه طرفة عين.

إِنَّ الْمُحِبَّ نَهَارُهُ مُسْتَوْحِشٌ ... بَيْنَ الْعِبَادِ يَسِيرُ كَالْمُتَفَرِّدِ

فَالْعَيْنُ مِنْهُ قَرِيرَةٌ بِحَبِيبِهِ ... يَرْجُو لِقَاءَ الْوَاحِدِ الْمُتَوَحِّدِ

يَا حُسْنَ مَوْكِبِهِمْ إِذَا مَا أَقْبَلُوا ... نَحْوَ الْإِلَـهِ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

إفشـــاء الســـلام

أخبرنا شيخنا أبو المكارم، باز الله الأشهب، خالي الشيخ : منصور، الأنصاري الحسيني ـ برواقه في نهر دقلي ـ قال : أنبأنا أبو الحسن أحمد ـ اشتهر بابن الصلت ـ قال : حدثنا أبو إسحٰق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، قال : حدثنا الحسين بن الحسن المروزي، قال : حدثنا الفضيل بن موسى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ :

« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ »(١).

أمر ﷺ بهذا الحديث الشريف : بقمع النفس، ومحق ثورتها، وصفعها بنعل الهمة، إذا تعدت طورها، بشأن إخوانها المسلمين.

وألزم بالمحبة الخالصة، وجعلها عماد الإيمان، لأنها لله سبحانه وتعالى.

وعلَّمَنَا ـ وهو معلم الخير ـ ﷺ ـ أن إفشاء السلام منتج للمحبة، وأهل الحق ممتحنون بأهل الباطل، ولكن لا تنحرف هممهم عن الحق، اعتمادًا عليه سبحانه وتعالى.

أي بني ! اعلم أن الله تعالى خلق الدنيا، وجعلها دار المحنة، ومحل الأخطار والأشرار، ثم خلط فيها الأبرار والفجار، وأهل المحبة بأهل البطالة، ثم يقلبهم من حال النعمة إلى حال الشدة، ومن حال الشدة إلى حال النعمة، لإظهار من يعبده على بساط المحنة، ممن يعبده على بساط النعمة، ومن يعبده على رؤية المعطي، ممن يعبده على رؤية العطاء! .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود، والترمذي.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾.

وفى الخبر: إن الذهب ليجرب بالنار، والعبد الصالح ليجرب بالبلاء.

والحكمة فى امتحان الله تعالى عباده الصالحين: إظهار ما فى ضمائرهم من صدق الدعوى وكذبه، وحقيقة المعنى وبطلانه، ليكون فيه ظهور مرتبة الصدِّيقين، وافتضاح غيرهم.

أما ترى أنه لا يسع للحاكم أن يحكم للخصم على إحاطة علمه، فى تصديق دعواه وبطلانه، من غير أن يظهر لغيره ذلك!.

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبطِلَ الْبَاطِلَ ﴾.

ثم اختلفوا، فقال بعض العلماء: من يعبده على بساط النعمة، أولى ممن يعبده على بساط المحنة، لأن منزلة الشكر، أفضل من منزلة الصبر، وذلك لأن الشكر على النعمة طاعة على بساط الفراغة، والصبر على الشدة طاعة على بساط الشغل.

وليس من عَبَدَ الله فارغاً، كمن عَبَدَه مشغولاً !.

وقال بعضهم: من يعبده على بساط المحنة أفضل، لأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أفضل مرتبة ممن دونهم ـ فامتحن الله عامتهم بأنواع المحن والبلاء.

وقال ﷺ « أَشَدُّ ٱلنَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ » الخبر.

وإن الكفرة هم أهون الخلق على الله، وعيش عامتهم بأنواع النعم.

وليس من طلبه بنفى الحجاب، كمن طلبه من وراء الحجاب.

وبشر الصابـــــرين

والشاكر يطلبه من وراء الحجاب، والصابر يطلبه دون الحجاب.

والشاكر يعبده على حظ نفسه، والصابر يعبده على حب ربه.

والشاكر مفتخر بملكه، والصابر مفتخر بمليكه.

والشاكر حبس نفسه مع النعمة، والصابر حبس قلبه مع المنعم.

والشاكر يقول: ما دامت النعمة معى، لا أبالى إن أصابنى ما أصابنى.

والصابر يقول: ما دام المنعم معى، لا أبالى إن أصابنى ما أصابنى.

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ، قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.

وإن الله تعالى أوجب للشاكر الزيادة، ونفى عن أجر الصابر النهاية، حيث قال:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ ﴾.

أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء: إنى قَدَّرْتُ فى أم الكتاب، أنى إذا أحببت عبداً جعلته للبلاء غرضًا، وألبسته جلباب الفقر.

وفى الخبر: أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: قل لأوليائى وأصفيائى وأهل محبتى: أن لا يدخلوا مداخل أعدائى، ولا يسكنوا مساكن أعدائى، ولا يَطْعَمُوا مطاعم أعدائى، فيكونوا أعدائى، كما أولئك أعدائى.

وقال وهب رحمه الله تعالى: إنا نجد فى كتاب الله المنزل: إن عبادى

المخلصين، كانوا إذا سلكوا طريق الشدة والبلاء، فرحوا واستبشروا، ويقولون: الآن يتعهدنا ربنا !.

إذا أحب الله عبداً ابتلاه

وفى الحديث القدسى: « **إن البلاء أسرع إلى من يحبنى، من السيل إلى منتهاه** ».

حكى أن ذا النون المصرى ـ رحمه الله تعالى ـ سمع مريضاً يقول: أخ، أخ! فقال: ليس هذا بصادق فى حبه، فقال المريض: أنينى من وجدان اللذة، لا من وجدان الشدة.

وحكى أن فتحاً الموصلى رحمه الله تعالى، أصابه الحمى، فصلى ألف ركعة، شكراً لله على ذلك، وقال: أمثلى يذكره الله من فوق عرشه ! وعلم أن لى ذنباً فأراد طهارتى.

وقالت رابعة رحمها الله تعالى: ما عرفت البلاء منذ عرفت الله.

أى بنى ! الخلق صنفان: ولى، وعدو، والحال حالان: شدة، ونعمة، فربما تصل الشدة إلى الولى كرامة له، كما وصلت إلى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وربما تصل اللذة إلى العدو خسراناً له، كما قال الله سبحانه: ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ** ﴾.

وربما تصل النعمة إلى الولى استدراجاً وتنبيهاً له، وربما تصل النعمة إلى العدو، وهو حظه من الآخرة، كما قال الله تعالى:

﴿ **قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** ﴾.

ثم إن الابتلاء على نوعين: إكرام، وإهانة.

فكل بلاء يقـربك من المولـى، فهو فى الاسم: بلـوى، وفى الحقيقة: زلفى.

وكل بلاء يبعدك عن المولى، فهو فى الحقيقة: بلوى !.

ألا ترى أن الله تعـالى ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسـلام، وكان سببُ ابتلائه: الخُلَّة والقربة.

وابتلى إبليس، وكان سبب ابتلائه: اللعنة والفضيحة!.

فقال إبراهيم فى البلوى: حسبى ربى، وقال إبليس: حسبى نفسى !.

فنودى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام بالخُلَّة، ولإبليس باللعنة !.

****

الحديث الثامن والثلاثون :

صلة الرحـــم

أخبـرنا ابن عمـى العبد الصـالح السيـد : سيف الـدين عثمان ، قـال : حـدثنى أبـوك السيد على بن يحيى الـرفـاعى ــ صاحـب المشهد المنـوَّر بالجانب الشـرقى من بغداد ـ قال : حـدثنى ابن عمى السيد حسن ، قال : حـدثنى السيد يحيى ، قـال : حدثنى السيـد ثـابت ، عن أبيه السيـد على الحازم ـ ويكنى بأبى الفوارس ـ عن أبيـه السيد على ، عن أبيه السيد رفاعة الحسن ـــ المكى ـــ عن أبيه السيـد أبى القـاسم محمـد ، عن أبيه السيـد الحسن الرئيس ، عن أبيـه السيد الحسين عبد الرحمن الـرضى المحدِّث ، عن أبيه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيد موسى ، عن أبيه السيد إبراهيم المرتضى ، عن أخيـه الإمام على الرضـا ـ صـاحب طوس ـ عن أبيـه الإمام مـوسى الكاظم ، عن أبيـه الإمام جعفـر الصادق ، عن أبيـه الإمام محمـد الباقر، عن أبيـه الإمام زين العابدين على ، عن أبيه الشهيـد المظلوم الإمام الحسين ، عن أبيه أمير المؤمنين على المرتضى ، رضى الله عنه وعنهم أجمعين ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لَمَّا أُسْرِىَ بى إِلَى ٱلسَّمَاءِ ، رَأَيْتُ رَحِماً مُعَلَّقَةً بِالْعَرْشِ ، تَشْكُو رَحِماً إِلَى رَبِّهَا أَنَّهـا قَاطِعَةٌ لَهَا ، قُلْتُ : كَمْ بَيْنَكِ وَبَيْنَهَـا مِنْ أَبٍ ؟ قَالَتْ : نَلْتقِى فِى أَرْبَعِينَ أَباً » .

فى هذا الحـديث الشريف ، من الإلزام للعبد بـالرحمة ، ما يقيـد نفسه عن جمـــوحهـا ، إذا أدرك وكـــان من المـــوفقين ، وقـــد بلغنى عن بعض العارفين ، أنه كان يقول فى مناجاته :

إِلَهى ! بأرحام اتصلت ، وبقلوب بك اشتغلت .

[لبيك يا خير صاحب وجليس] :

أى بنى ! اعلم أن المحبين فى طرائق العبودية ، وأوقات المناجاة ، على أصناف شتى ، فمنهم من ناجاه على لسان الاعتذار، ومنهم من ناجاه على لسان التحير والاضطرار، ومنهم : من نـاجاه على لسان الطرب والافتخار، ولو علم أهل الغفلة ما فاتهم فى كل نفس ! .

قـال النبى ﷺ فى منـاجـاته : « إِلَهى ! إذا قـرت أعين أهل الـدنيـا من دنياهم ، فأقر عينى بك ، وأقر عينى بلذائذ أنسك ، والشوق إلى لقائك » .

وكذا يقول من يحب : يا خير مؤنس وأنيس ! يا خير صاحب وجليس ! طوبى لمن اكتفى منك بك ، اللهم لبيك ، لبيك يـا حبيب القلوب ! لبيك يـا سـرور القلــوب ! لبيك لبيك يـا منى القلــوب ، لبيك اللهم آليت بك عليك ، أن لا تصرفنى بك عنك ، ولا تحجبنى بك عنك .

[مناجـــاة] :

إِلَهـى ! لـو دعـوتنى إلى النـار لأجبتـك ، وافتخـرت بك ، فكيف وقـد دعوتنى إلى نفسك؟ .

إِلَهى ! إن قربتنى منـك ، فمن الذى يبعدنى؟ و إن أعـززتنى بك ، فمن الذى يذلنى؟ و إن رفعتنى إليك فمن الذى يضعنى ؟ .

إِلَهى ! من أرهب وأنت مولاى؟ ولمن أرجو وأنت مناى ؟ وبمن استأنس وأنت جليسى؟ فبك عليك أن تتفضـل بإتمـام فضلك ، يـا نعم المـولى ! ونعم النصير.

إِلَهـى ! سـرى عنـدك مكشوف ، وأنـا إليك ملهـوف ، وأنت بـالجـود معروف ، وبالكرم موصوف .

إلَهي ! أنت أنيس المستأنسين من أحبائك، ومأوى المرهوبين من أصفيائك، وجليس الملهوفين من أوليائك .

إلَهي ! ما أطيب معرفتك فى قلوب العارفين، وما أحلى ذكرك فى أفواه الذاكرين، وما أحلى مودتك فى أسرار المحبين .

إلَهي ! أنت الذى لا تبطل أمل الآملين، ولا يخفى عليك أحوال المريدين، ولا يخيب لديك رجاء المنيبين .

إلَهي ! أنت سرورى إذا نظرتُ منك إليك، وأنت حسبى إذا استكفيت بك منك، وأنت أنيسى إذا نزلت منك بك .

اللهم ارحم انقطاعى إليك، وانفرادى بك، ووحشتى عمن سواك، فيا خير مؤنس وأنيس ! ويا خير صاحب وجليس ! كن دليلى منك وإليك .

إلَهي ! اجعل أجلَّ العطايا فى قلبى حياءك، وأعذب الكلام على لسانى ثناءك، وأحب الساعات إلىَّ ساعة يكون فيها لقاؤك .

إلَهي ! ما أوحش قلباً ليس فيه ذكرك، وما أخرب قلباً ليس فيه خوفك ! وما أقل سرورًا ليس فيه حبك ! .

إلَهي ! لا صبر لى فى الدنيا عن ذكرك، فكيف أصبر فى الآخرة عن رؤيتك؟ ! .

إلَهي ! أشكو إليك غربتى فى بلادك، ووحشتنى بين عبادك .

إلَهي ! ما لمرادنا غيرك، ولا لبغيتنا دونك، وما لحاجتنا سواك .

إلَهي ! هذه لذائذ المناجاة، فكيف لذائذ الملاقاة؟ .

إلَهي ! هذا شكرى، وشكر شكرى .

إلهى ! هذا سرورى، وسرور سرورى .

إلهى ! هذا ودى وود ودى .

إلهى ! أنسى بك أوحشنى من خلقك، ومعرفتى بك تمنعنى عن مناجاة غيرك .

إلهى ! كيف أشغلُ لسانى بذكر غيرك؟ أم كيف أشغلُ بصرى برؤية غيرك؟ أم كيف أشغلُ قلبى بحب سواك؟ وأنا لا أعرف غيرك .

إلهى ! على مَنْ أُثنى وأنتَ وليى؟ ومَنْ أرجو وأنت مُناى؟ يا خير معروف ومذكور ! أعززتنى بولاية معرفتك، فلا تذلنى يا سيدى بعدها بمن سواك .

إلهى ! عجبت ممن يعرفك، كيف لا يستغنى عمن سواك؟ .

إلهى ! عجبت ممن أنس بك، كيف لا يستوحش عن غيرك؟ .

إلهى ! عجبت لمن أرادك كيف يريد سواك ؟

إلهى ! هذا سرورى بك فى دار الفناء، فكيف سرورى بك فى دار البقاء؟ .

إلهى ! هذا سرورى بك فى قراطق (أى ثياب) الخدمة، فكيف سرورى بك فى غلائل النعمة؟ .

إلهى ! هذه لذائذ المحبة، فكيف لذائذ الرؤية؟ .

إلهى ! هذه لذائذ المؤانسة، فكيف لذائذ الزيارة؟ .

إلهى ! من لم يكن مسرورًا بك، فَمِنْ أى شىء يكون له سرور؟ .

إلهى ! سقيتنى بكأس الحب حتى أسكرتنى، فالحب يقتلنى، والشوق يحرقنى .

إلهى ! أريتنى حبك، فأرنى وصلك .

إلٓهى ! طال بك حسن ظنى، على أن لا تردنى خـائباً، فلا تخيب ظنى بك، يا معروفاً بالمعروف !.

إلٓهى ! ليس لى عنك صبـر، ولا فيـك حيلـة، ولا منك بـد، ولا عنك مهرب، ولا مع سواك أنس.

إلٓهى ! أحييتنى بمعرفتك، فلا تمتنى بنكرتك.

إلٓهى ! أريتنى وصالك، فلا ترنى فراقك.

إلٓهى ! إن لم تفعل ما نريد، فصبرّنا على ما تريد؟.

إلٓهى ! فَرِّغْ قلبى لـذكر عظمتك، وأطلق لسانى بـوصف منتك، وقوِّنى على شكر نعمتك.

إلٓهى ! ارحمنى فأنا عـاجز عند النَصب (أى المشقـة والتعب) جاهل بالسبب، حيران فى الطلب.

إلٓهى ! جعلت سبب ما تعطى رجاءك، وسبـب ما يجمع بين أوليائك، تأليفك بين قلوبهم.

إلٓهى ! فأعطنى المرجو كما وهبت الرجاء، واجمع بينى وبين أوليائك، كما ألفت بين القلوب.

كيف يفتقر من أنت حظه؟ أم كيف يستـوحش من أنت أنيسه؟ أم كيف يذل من أنت حبيبه؟ أم كيف يحزن من أنت نصيبه ؟.

إلٓهى ! همك أبطل عنى الهموم، وحبك حال بينى وبين الرقاد، وشوقى إليك منعنى اللذات، وأنسى بك أوحشنى عمن سواك.

إلٓهى ! أنت توالى من يعاديك، فكيف تعادى من يواليك؟!.

إلٓهى ! معرفتى بك دليلى عليك، وحبى لك وسيلتى إليك.

إلٓهى ! عـرَفَ المحبون كمـال ربوبيتك ، والمـذنبون صنيعك وكمـال قدرتك ، فاستسلموا وانقادوا لك .

إلٓهى ! اجعلنى ممن لا يتخـذ دونك خليــلاً ، ولا يلتمس إلى سـواك سبيلاً ، ولا يرجو من غيرك فتيلاً .

إلٓهـى ! لا تجعلنى ممن صـرفت عنــه وجهك ، وحجبت عنـه عفـوك وأغلقت عليه بـابك ، وقطعت عنه أسباب عصمتك ، ووكلتـه إلى نفسه ، إنك على كل شىء قدير.

قـال مـالك بن دينار رحمـه الله تعـالى : رأيت جـارية متعلقة بـأستار الكعبة تقول :

إِلَيْكَ جِئْنَـــا وَأَنْـتَ جِئْتَ بِنَـــا وَلَيْسَ شَـىْءٌ سِـــواكَ يُحيينَـــا
مِنْكَ طَلَبْنَـــا وَأَنْـتَ تَمْلِكُنَـــا وَلَيْسَ شَـىْءٌ سِـــوَاكَ يُـــؤْتِينَـا

****

الحث على بر الوالدين

أخبرنا شيخنا منصور الرباني رضى الله عنه، عن أبيه سيدى يحيى النجارى، عن سيدى أبى محمد الشنبكى الأنصارى ثم الحسينى الحسنى، عن الشيخ أبى بكر بن هوَّار البطايحى، عن سيدى سهل بن عبد الله التُسْتَرى، عن الشيخ ذى النون المصرى، عن الشيخ إسرافيل المغربى، عن الإمام موسى الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام زين العبادين على، عن أبيه الإمام الحسين، عن أبيه الإمام على المرتضى رضى الله عنهم، عن النبى ﷺ أنه قال: « نَظَرُ الْوَلَدِ إِلَىٰ وَالِدَيْهِ عِبَادَةٌ ».

قلت: فى هذا الحديث الشريف، من إعظام شأن الحب لله، ما يرفع بهمم المحبين إلى الله، فإن النظر فى الله عبادة، وكذلك.

أى بنى! فاعلم أن عالم أسرار المحبين، والمطلع على همة المشتاقين، طيب الدنيا للعارفين، بذكر الخروج منها، كما طيب الجنة لأهلها، بذكر الخلود فيها، ولا شىء أحبُّ إلى المحب من لقاء المحبوب، ولولا الآجال التى كتبها الله على المشتاقين، لماتت أرواحهم فى أبدانهم، لشدة الاشتياق إليه.

قال أنس رضى الله عنه: قيل: يا رسول الله! لو شاء الله أن يدوم البقاء لأوليائه فى الدنيا.

فقال: يأبى الله أن يجعل الخلود لأوليائه فى الدنيا، بل اختار لأوليائه

وأحبائه ما عنده من جزيل كراماته، أما تعلمون أن الحبيب يشتاق إلى الحبيب، فطوبى لمن كان روحه وراحته فى لقاء الله.

وحكى أن أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال لرفيق له: أين تذهب؟ فقال: أشترى شيئًا لأهلى.

فقال أبو هريرة له: إن قدرت تشترى الموت لى فافعل، فإنه طال شوقى إلى ربى، وإن الموت أحب إلىَّ من شرب الماء البارد للعطشان، وأحلى من العسل، ثم بكى بكاءً شديدًا، وقال: واشوقاه إلى من يرانى ولا أراه، وغشى عليه.

قيل لأويس رحمه الله تعالى: كيف أصبحت ؟.

قال: كيف يصبح من إذا أصبح لا يشتهى أن يمسى، وإذا أمسى لا يشتهى أن يصبح، وطال شوقه إلى منى قلبه.

[من أحوال المشتاقين]

قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كنت أسير فى بعض حيطان البصرة، فرأيت شاباً مريضاً أشعث أغبر، مستقبلاً للقبلة، يقول: قرةَ عينى، طال شوقى إليك، وما آن أن ألقاك ؟ فإلى متى تحبسنى عنك؟ .

فقلت: يا شاب! هذا الوقت الذى يطلب فيه الأحبة محبوبهم؟ .

فقال: الحبيب فى كل الأوقات موجود، ليس بمفقود، بل هذا الوقت الذى تُظهر الأحبة احتراقهم بحبيبهم، ويكشف المشتاقون كتمان سرائرهم، بهيجان نيران الاشتياق إلى مُنَاهم.

وحكى أن رجلاً من أهل البصرة، بكى على شوقه حتى ذهب عيناه، ثم قال:

إِلَهى ! إلى متى لا ألقاك ؟ فبعزتك لو كانت بينى وبينك نار تلتهب، ما رجعت عنك ــ بعــونك وتـوفيقـك ــ حتى أصـل إليك، ولا أرضى منك بدونك .

قيل : كان لفتح الموصلى ــ رحمه الله تعالى ـ ابنتان عارفتـان، فخرجتا إلى الحج، فلما وقعت أعينهما على البيت .

قالت إحداهما للأخرى : يا هذه! أهذا بيت ربى ؟! .

فقالت الأخرى : نعم، فصاحت صيحة، وماتت من ساعتها ! .

وقالت الأخـرى : إِلَهى ! أشكو من نفسى إليك، وقد طـال شوقى إليك آه، آه، آه، تقولها حتى ماتت .

وقيل لأبى بكر الواسطى رحمه الله : ما حظيرة القدس ؟ .

قـال : هى حظيرة جعلهـا الله لاستماع كـلامـه ومناجـاته، والنظـر إلى وجهه، حيث شاءوا ومتى شاءوا، وتلا قوله :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ .

قـال إبراهيـم بن أدهم رحمه الله تعـالى : دخلت جبل لبنـان، فإذا أنـا بشاب قائم يقـول : يا من قلبى له محب ! ونفسى له خادمـة، وشوقى إليه شديد، متى ألقاك ؟ .

فقلت : رحمك الله ! ما علامة حب الله ؟ .

قال : حب ذكره، قلت : فما علامة المشتاق؟ قال : أن لا ينساه فى كل حال .

بعض أهل المعرفـة حضرته الوفـاة، فبكت امرأته، فقـال : ما يبكيك؟ قالت : كيف لا أبكى، وأنا أبقى منك فردًا .

قال: يا هذه ! أنا منذ أربعين سنة بكيت شوقاً إلى هذا اليوم، فإنه يوم وصلتى وأُلفتى وراحتى، فمرحبا به !.

وحكى أن الحسن البصرى رضى الله عنه حضرته الوفاة، وكانوا يلقنونه الشهادة، ففتح عينيه وقال: إلى متى تدعوننى إليه، وأنا محترق به منذ عشرين سنة؟.

وسئل سهل بن على ــ رحمه الله تعالى ــ عن خفقان قلب الخليل، وأزيز قلب المصطفى صلى الله عليهما وسلم ؟.

فقال: خفقانه من الخوف، وأزيزه من الشوق.

وبكت رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ عند موتها، وضحكت من ساعتها، فقيل لها فى ذلك !.

فقالت: أما بكائى، فمن مفارقتى الذكر آناء ليلى ونهارى، وأما ضحكى، فمن سرورى بلقائه، وماتت من لحظتها.

ومرض أبو الدرداء رضى الله عنه، فقيل له: ألا ندعو لك طبيباً يداويك؟.

فقال: الطبيب أمرضنى، طال شوقى إلى ربى، وإلى قرة عينى محمد ﷺ وإلى إخوانى الذين مضوا من قبلى، وإنى أخاف أن أُفَرَّقَ عنهم.

وكان ذو النون ـ رحمه الله تعالى ــ يقول ليلة إلى الصباح: المستغاث، المستغاث، ثم دخله السكينة، فقيل له فى ذلك !.

فقال: نظرت البارحة بعين السر، فى ملاحظة الحق، حتى بسط إلىَّ بساط محبته، وغلبنى الاشتياق إليه، فاستغثت إليه بالخروج من الدنيا، كما يستغيث أهل النار بالخروج منها.

ثم نظرت إلى سرور المجتهدين فى الدنيـا ، ومؤانسة المريدين فى ظلم الليـالى ، وافتـراشهم الجبهـة بين يـدى عـلام الغيـوب بصفـاء القلـوب ، فدخلتْ علىَّ السكينة .

قال عقبةبن سلمة رحمه الله تعالى : مـا من ساعة يكون العبد أقرب إلى الله من حين يخـر سـاجـدًا ، ومـا من خصلـة فى العبـد أحب إلى الله من الشوق إلى لقائه .

وفى الخبر: نعم التحفة للمؤمن لقاء مولاه .

قـال محمد بن يـوسف رحمـه الله تعالى : لـو خيـرت بين أن أعيش فى الدنيـا مائة سنـة ، أعبد الله تعالى لا أعصيـه طرفـة عين ، وبين أن أموت ، لاخترت الموت .

قيل : ولم ذلك؟ قال : من شدة اشتياقى إليه ! .

***** ****

آداب إسلاميـــــة

حـدثنـا شيخنا الشيـخ القدوة : على الـواسطى رضى الله عنـه ، قـال : حدثنـى أبو الفوارس طـراد بن محمد الـزبيبى ، قـال : حدثنا أبـو الحسن محمد بن زرقويه ، قال : حدثنـا أبو جعفر محمد بن يحيى الطائى ، قال : أخبرنا جد أبى على بن حرب بن محمد الطائى ، عن سفيان بن عيينة ، عن الزُّهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« التَّسْبِيحُ لِلرِّجالِ وَالتَّصْفِيقُ لِلْنِّسَاء » (١).

هـذا الحـديث يشيـر إلى الجـد فى الأعمـال ، واستهـلاك الحـركـات والسكنات فى الله تعالى .

وقد ترى جماعة من العارفين ، يضربون للإشارات فى الحالات ، ولدى الحضـرات كفّاً بكف ، فـإياك أن تظن أن إشـارتهم هـذه : من التصفيق ، فتزلق ، إنما هى استهلاك حركة لله ، فى حـركة أخرى لله ، فإنهم ماتوا بالله ، حالة كونهم أحياء ، فلذلك أحياهم الله ، حالة كونهم أمواتاً .

أى بنى ! اعلم أن لله تعـالى عبـاداً ، قد ملئت قلـوبهم بمحبـة ربهم ، ينتظـرون الموت اشتيـاقـاً إلى حبيبهم ، ويكـرهون طـول المُكْثِ فى هـذه الدنيا ، لا راحـة لهم دون الخروج منها ، وهم مغمومون بطـول البقاء فيها ، وشوقهم إلى الخروج ، أشد من شوق العطشان إلى الماء الزلال ، فإذا قرب أجلهم ، أتاهم ملك الموت مع سبعين ألف ملك من الله بالتحية والسلام ،

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .

كما قال الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وكذلك يجيئ الملك للمؤمن على أطيب ريح ، وأحسن صورة .

فيقول المؤمن له : مرحباً ، لأى أمر جئت ؟ .

فيقول له : لقبض روحك ، على أى حال تحب أن أقبض روحك ؟ .

فيقول : إذا كنتُ فى السجود ، فيفعل ذلك ملك الموت ، فيأتيه حافظاه ويقول أحدهما لصاحبه : كان لنا صاحباً وأخاً ، قد حان له الفراق ، فيقولان له : جزاك الله خيراً ، وغفر لك ، فنعم الأخ كنت ، لقد كنت أيسر مؤمن ، ونعم ما قدمت لنفسك :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ بالروح والراحة .

وتقول روحه لجسده : جزاك الله عنى خيراً ، كنت تحب الخير وأهله ، وتبغض الشر وأهله ، أستودعك الله .

مُرَّ بجنازة على أمير المؤمنين عليٍّ ـ كرم الله وجهه ورضى عنه ـ فقال : مستريح ، أو مستراح منه ، فقيل له : من المستريح ؟ .

قال : المؤمن إذا مات استراح من نَصَب الدنيا ، وإيذَاء أهلها ، فلقى رحمة الله عليه ، والمستراح منه الفاجر ، إذا مات استراح منه العباد والبلاد .

قال مأمون السلمى رحمه الله : لما توفى أبو عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ غسلناه وكفناه ودفناه ، فهتف بنا هاتف من السماء :

الحمد لله الذى أوصل الحبيب إلى الحبيب ، راضياً مرضياً .

وقال رجل من أصحاب أبى عبد الله : رأيته فى المنام بعد موته ، كان يتبختر فى حظيرة القدس ! فقلت له : ما هذا التبختر ؟ يا أبا عبد الله أليس قد نُهينا عنه .

فقال : هذا مشى الخدام ، فى دار السلام ، عند الملك العلام .

ورؤى ذو النون ــ رحمه الله تعالى ــ بعد موته فى المنام ، فقيل له : ما حالك؟ قال : سألت الله أربع مسائل ، فأعطانى اثنتين ، وأنتظر اثنتين ، قيل : وما هُنَّ؟ قال : قلت :

إِلَهى ! إن قبضت روحى فلا تكلنى إلى ملك الموت .

وإن سألتنى فلا تكلنى إلى منكر ونكير.

وإن أهنتنى فلا تكلنى إلى مالك .

وإن أكرمتنى فلا تكلنى إلى رضوان .

[من حكايات الصالحين بعد الموت] :

وحكى أن داود العجلى ـ رحمه الله تعالى ــ لما مات ـ حُمِلَ إلى قبره ، فإذا هو مفروش بالرَّيْحان ، فأخذ الذى يدفنه شعبة من الرياحين ، وكان الناس ينظرون إليها تعجباً ، سبعين يوماً لم يتغير حالها ، فأشخص الأمير وأخذها من الرجل ، ففقدت ، فلا يدرى كيف ذهبت ؟! .

وقال عمار بن إبراهيم رحمه الله تعالى : رأيت المسكينة الطاوية بعد موتها فى المنام ، وكانت تحب مجلس الذكر، فقلت : مرحباً يا مسكينة ! .

فقالت : هيهات يا عمار ! ذهبت المسكنة ، وجاء الغنى .

قلت : هنيئاً لك .

قلت : هنيئاً لك .

فقالت : وما تسأل عمن أبيحت له الجنة بحذافيرها ! .

قلت : بماذا؟ .

قالت : بمجالس الذكر.

فقلت : فما فعل الله بعلى بن زادان؟ فضحكت وقالت : كساه حلة البهاء، وقيل له : يا قارئ ! اقرأ، وارْقَ .

وقال ابن أبى الحوارى رحمه الله تعالى : رأيت الواصلى بعد موته فى المنام، كأنه قائم فى الهواء، وقد امتلأ الهواء من نوره ! فقلت له : ما فعل الله بك؟ .

قال , نعم المولى مولانا، غفر لنا وأكرمنا، وجعل بنا ما هو أهله، قلت له : أوصنى ! قال : عليك بمجالسة الذاكرين، فإنهم عندنا فى الرفيع من الدرجات .

ولما حضر معاذاً ـ رضى الله عنه ـ الموتُ أُغمى عليه، ثم أفاق .

فقال : ألحقونى بالذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، ثم ضحك وقال : لا إِلَه إِلاَّ الله، محمد رسول الله، الحمد لله . ثم مات .

وحكى أن امرأة دخلت على عائشة رضى الله عنها، فصلت عند قبر النبى ﷺ ثم سجدت، فلم تزل تقول : واشوقاه ! فلم ترفع رأسها حتى ماتت .

وقال جعفر الضبى ـ رحمه الله تعالى ـ حضرت زيارة قبر مالك بن دينار رحمه الله تعالى، فقلت : ليت شعرى، ما فعل الله بمالك؟ فسمعت صوتاً من فوق مالك :

مالك نجا من المهالك ، ومن وعثاء المسالك ، وصار إلى دار السرور، بمجاورة الرب الغفور، فقلت : الحمد لله .

وقال ابن بكار: صلينا الغداة يوماً بالمَصِّيصة (اسم مدينة) فلما سلَّم الإمام قام رجل وقال: يا أيها الناس ! إنى رجل من أهل الجنة ، وإنى أموت اليوم ، فمن كانت له حاجة فليأت ، فلما صلينا العصر، مات الرجل فى سجوده .

وحكى أن الحارث عمر بن الطائى رحمه الله تعالى مرض بأرمينية ، فيوماً من الأيام ، استقبل القبلة وصلى ركعتين ، ثم قال فى آخر سجوده : اللهم إنى أسألك باسمك الذى هو قِوَامُ الدين ، وبه ترزق العالمين ، وبه تحيى العظام وهى رميم ، إن كان لى خير عندك ، فعجِّل قبضى . ثم سكت ، فحركوه فإذا هو ميت .

وقال مالك بن دينار رضى الله عنه : كان لى رفيق ــ وكان والله من العارفين ــ فمرض فحضرته لأعوده ، فإذا هو رافع بطرفه نحو السماء ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى أحبك ، فبارك لى فى لقائك ــ . فلم يتم كلامه حتى مات .

وحكى أن رجلاً رأى مالك بن دينار رضى الله عنه ، كأنه فى قصر معلق فى الهواء ، بحيث لم يصف الواصفون حسنه ، فقال له : ما فعل الله بك يا مالك ؟ .

فقال : أنزلنى ربى فى هذا القصر ـ كما ترى ــ وأباح لى أن أنظر إليه كلما اشتقت إلى رؤيته ، بلا كيف ولا شبه ، والحمد لله رب العالمين

ولما حضرتْ الوفاةُ سيدى الشيخ : منصور، رضى الله عنه ، بكينا حوله ، فأفاق من غشيته وقال :

مَوْتُ الْمحبِّ حَيَاةٌ لا انْقِطَاعَ لَهَا

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِى النَّاسِ أَحْيَاءُ

ثم تكلم فقـال ــ رضى الله تعالى عنـه ــ : أشـــــهد أن لا إِلَـه إلا الله ، وأشـــــهد أن سيدنـا محمداًرسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم ـ ثم قضى نحبـه ، وصعدت روحـه الطاهـرة إلى خـالقها فـرضى الله تبارك وتعـالى عن سيـدى القطب الكبير سيـدى أحمد الـرفـاعى وعـن أحبـابـه وعن جميع المسلمين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .



بحول الله وقدرتـه وببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم نالت مكتبتنا ــ دار جوامع الكلم الجعفرية (الجعفـرية : نسبة للعارف بـالله تعالى الشيخ صالح الجعفرى نسبًـا والمالكى مذهبًا والازهرى علمًا وكـانت عقيدته أشعريه وهـو مؤسس للطريقة الجعفرية) نـالت شرف طبع و إصدار كتاب (حالة أهل الحقيقة مع الله) لسيدى احمد الرفاعى

فرضى الله تبارك وتعالى على اهل الله أجمعين .

الفهـــــرس

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية
٩٢ / ٩٩٣١

الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 5259 - 10 - X